قصدية الخطاب القرآني في مجادلات طوائف المعاندين

مقاربة بلاغية تداولية

أ.م.د. حمد الله عبد الحكيم محمد

أستاذ البلاغة والنقد الأدبي المساعد

كلية الآداب– جامعة جنوب الوادي

Hamdallah.abdelhakeem@art.svu.edu.eg

المستخلص

تتشارك النظريات المعرفية في تحليل النص، فعلى الرغم اختلاف مشاربها إلا أن هناك نقاط تماس وتلاق وهذا راجع إلى وحدة الفكر البشري في اهتماماته ومكوناته ومن ثم تراكم المعارف والثقافات؛ فالتداولية والنصية والقصدية والحجاج والبلاغة كل هذه النظريات نتاج بشري له مواضع اتفاق وتقارب، وقد اهتم البحث بالكشف عن نقاط التلاقي دون الخوض في نقاط الاختلاف، ثم قراءة مقاصد المعاندين التي اتفقت هي الأخرى رغم اختلاف الأماكن والأزمان والرسل، فقد أبان تكذيبهم للرسل عن تكرار ملفت لمواضع الإنكار والجدل، فما قيل في الأمم الأولى قيل في الأمم المتأخرة؛ ولعل هذا يكشف عن وحدة النفس الإنسانية في تلقي الرسالات.

وقد أماطت الدراسة اللثام عن العلاقات الفكرية بين النظريات البلاغية المتقاربة ومن ثم عرضت لطوائف المعاندين ومقامات جدالهم، ثم تعرضت بالدرس للأساليب الحجاجية التي تسلحوا بها في رفض دعوات الرسل مبينة خواص الأساليب البلاغية السجالية عندهم، كما عرضت لتوظيف الصيغ والأدوات في حديثهم، وكشفت الدراسة عن التزامهم المناورة والجدل منهجا دون الدليل والبرهان في محاوراتهم مع الرسل وكذلك محاوراتهم فيما بينهم مع التحول الأخروي.

الكلمات المفتاحية: البلاغة، التداول، القصدية، الحجاج، التفسير الموضوعي.

Intentionality of the Qur'anic discourse in the arguments of the stubborn sects
A rhetorical pragmatic approach

Abstract

Cognitive theories have many things in common regarding the analysis of the text, despite their different tendencies. This is due to the unity of human thought, the similarity of its interests and components, and the accumulation of human knowledge. The pragmatic, textual, intentional, argumentative and rhetoric theories are all human products with points of agreement and convergence. The research is concerned with revealing the points of convergence without going into the points of disagreement in order to read the purposes of the stubborn sects, which also agreed despite their different places, times and messengers. Their denial of the messengers revealed a striking repetition of the places of denial and argument; what was said about the first nations was said about the later ones; Perhaps this reveals the unity of the humans in receiving messages.

The study reveals the intellectual relations between convergent rhetorical theories, and then introduces the stubborn sects and their different discourses, and then studies the argumentative methods that they used in rejecting the messages of the prophets, showing the characteristics of their polemic rhetorical methods, and also the employment of forms and devices in their discourse, and by analyzing their conversations with the prophets and their conversations among themselves with the eschatological transformation, revealed their commitment to maneuver and quarrels as a method not using evidence or proof.

Keywords: rhetoric, intentionality, argumentation, pragmatics, the objective interpretation.

مقدمة:

مقاصد خطاب المعاندين واحدة على مختلف العصور والأزمان، وفحوى كلامهم واحد سواء أظهروا الكفر وجهروا به كالأقوام المكذبة للرسل أو أبطنوه وأظهروا غيره كطائفة المنافقين الذين يظهر من استعمالات كلامهم شيء لا يتطابق مع مقاصد كلامهم، ومن هنا كان اهتمام البحث بدراسة مقاصد المعاندين من خلال لغتهم وسياق كلامهم واستعمالاتهم لأدوات اللغة ومن ثم كشف بلاغتهم الكاذبة التي لا تعتمد على الدليل والبرهان بل كان اعتمادها على زخرف القول واستغلال السلطان.

وقد جاء اختياري لهذه الدراسة للكشف عن تقارب صور المجادلات في الخطاب المعاندي من خلال الخطاب القرآني الذي نقل لنا تفاصيل تلك المجادلات مع بيان مقاصد المعاندين من عنادهم وأهدافهم المعلنة والخفية.

وقد اعتمدت الدراسة على مناهج جمعت بين الأصالة والحداثة من خلال أدوات البلاغة العربية وما قدمته التداولية في قراءة مقاصد المتكلم، واتخذت الدراسة المنهجين الوصفي والتداولي سبيلا إلى كشف اختيارات المعاندين للكلمة والتركيب والأسلوب؛ لفهم مقاصدهم منها حسب السياقات المتعددة التي وردت فيها. ولم أقف على دراسة عرضت لمقامات المعاندين وكشفت عن طوائفهم فرادي وجماعات ووقفت على دراسة أساليبهم التعبيرية واختياراتهم الأسلوبية، ولعل أقرب الدراسات إلى هذه الدراسة دراستان تصدر عنوانهما المغالطة: الأولى:المغالطة ومنهج القرآن في الرد عليها، للباحث زمخشر بن حسب الله طيب، وعصام التيجاني، نشرت في مجلة الإسلام في آسيا، مجلد ١١، عدد ١١، سنة ٢٠١٤م. والثانية: بعنوان المغالطات في ردود منكري الرسالات في القرآن الكريم، للباحث أيمن أبو مصطفى، نشرت في مجلة سياقات اللغة والدراسات البينية، مجلد٢،

عدد٥، إبريل ٢٠١٧م، وعرضت لبلاغة الحقيقة مع التمثيل لأنواع المغالطات؛ كالمنطقية والسياقية والمغالطة بالدليل الفاسد ... وغيرها.

وتقوم هذه الدراسة على ثلاثة مباحث: تناولت في المبحث الأول: تمهيد بين مطلحات القصدية والبلاغة والتداولية والحجاج، وفي المبحث الثاني: عرضت لمقاصد طوائف المعاندين ومقامات كلامهم، وفي المبحث الثالث: فصلت القول في خطاب طوائف المعاندين في البيان القرآني بين البناء والمقصد.

المبحث الأول

القصد والبلاغة والتداولية

تتعانق فنون القول لبيان العلاقة بين المتكلم والسامع، ما بين قصد المتكلم، وبين استعمال اللغة في التواصل، وبين طرق التعبير واختيار المفردات والتراكيب، ولقد كان لاستعمال اللغة كوسيلة للتواصل وممارسة تأثيرها على المتلقي دوره في تكامل المصطلحات الثلاثة؛ فالتداولية أولت عنايتها بالنص في موقف معين مع مراعاة السياقين: الخارجي (المقام)، والداخلي (اللغوي)، وهو أمر تعنى به البلاغة عناية خاصة فلا فهم لكلام إلا من خلال موضع التعبير عنه، وما يجعل النص حيا متجددا مراعاة قائله لمستمعه أو قارئه والرسالة والمقام والمكان والزمان، والطريقة الخاصة بالبلاغة المعيارية تجعل للنص التداولي ذي الموقف الخاص والمستعمل في ظروف خاصة تحليل خاص به.

وقد أفادت هذه المناهج النقدية مما سبقها من مناهج، واعتمدت عليه لدرجة تجعل من نقاط التماس أمرا ظاهرا، وأصبح بينها تداخلا و"أدى التداخل الشديد بين البحوث اللغوية والبلاغية والأسلوبية إلى صعوبة تمييز ما هو نصي مما هو غير نصي، إذ إنها كلها تعني بالمضمون، وإن كانت تتوصل إليه بطرق مختلفة، حتى أدوات هذه المناهج تتداخل بشكل يدعو إلي الدهشة، وصار الربط بين مستويات اللغة من صوتية وصرفية ونحوية ودلالية، سمة مشتركة، وإن أضيف إليها المستوى التداولي الذي هو جزء أصيل منها"[1]، كل هذا كان له تأثير كبير على تطور كثير من العلوم والنظريات في الشرق والغرب، وأكد على ضرورة البحث عن نقاط التلاقي والكشف عن المخبوء الفكري للتراث العربي.

---

١ علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، د.سعيد بحيري، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، القاهرة ١٩٩١م، ص١١-١٣.

ذكرت معاجم اللغة معاني للتداول؛ جاء في اللسان: "إنما الدَّولة للجيشين يهزم هذا هذا ثم يُهزم الهازم، فتقول: قد رجعت الدَّوْلة على هؤلاء كأَنها المرَّة، والدُّولة برفع الدال في المِلْك والسُّنن التي تغيَّر وتُبدَّل عن الدهر فتلك الدُّولة والدُّوَلُ، وقال الزجاج: الدُّولة اسم الشيء الذي يُتداول والدَّوْلةُ الفعل والانتقال من حال إِلى حال"[1]، وجاء في مفردات ألفاظ القرآن، "الدولة اسم الشيء الذي يتداول بعينه، والدولة المصدر؛ قال تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ ﴿الحشر:٧﴾، وتداول القوم كذا؛ أي: تناولوه من حيث الدولة، وداول الله كذا بينهم، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ ﴿آل عمران:١٤٠﴾"[2] وتدور معاني الكلمة حول التبدل والتغير والصيرورة من حال إلى حال والتناول والانتشار، وهي معاني قريبة لاستعمال اللغة وانتشارها وتحولها وتناقلها بين المتكلمين بها.

والتداولية يعنى بها : "دراسة اللغة في الاستعمال أو في التواصل؛ لأنه يشير إلى أن المعنى ليس متأصلا في الكلمات وحدها، ولا يرتبط بالمتكلم وحده، ولا بالسامع وحده؛ فصناعة المعنى تتمثل في تداول اللغة بين المتكلم والسامع في سياق اجتماعي محدد (مادي، واجتماعي، ولغوي) وصولا إلى المعنى الكامل في كلام ما"[3]، فالكلام المتداول لا حدود لتأويله، وقد تتولد من انتقاله معاني لا تخطر على بال المتكلم (قائله)، وقد تفوق فهم متلقيه، وما يجعله يحمل هذه المعاني تعدد السياقات؛ فلاختلاف السياق دور في ذلك.

١ لسان العرب، لابن منظور (مادة: دول).
٢ مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني (مادة: دول).
[3] الاتجاه التداولي والوظيفي في الدرس اللغوي، د.نادية رمضان النجار، مؤسسة جورس الدولية، الإسكندرية، مصر، ط١،٢٠١٣م، ص١٠.

والقصدية عنصر مهم من عناصر التداولية في اللسانيات الحديثة، فقد عنيت الدراسات التداولية بالقصد من استخدام تراكيب لغوية خاصة في موقف خاص، حيث ترى المعنى ليس متأصلًا في الكلمات وحدها وليس مقصورا على المتكلم وحده بل في تداول اللغة بين المتكلم والسامع في سياق خاص قد يكون ثقافيا أو اجتماعيا أو دينيا أو معرفيا أو غير ذلك؛ للوصول إلى اكتمال المعنى، فالمقاصد والدلالات والمعاني هي أساس التأثير في عملية التلقي، وتنظر التداولية إلى اللغة على أنها كائن حي منجز في سياق معين يتلقاه المتلقي محاولا فك رموزه وشفراته وفهم مقاصده، وهي كما تعنى بالنص في سياقه الخاص تعنى بالسامع، وهو نهج البلاغة التي تهتم بكيفية نقل الكلام وتوصيله، ودراسة الطرق التي يستخدمها المتكلم في علاقته بالسامع.

وتعتمد التداولية على نظريات ثلاث؛ الأولى: نظرية الحدث وهي تعنى بدراسة التعبيرات والرموز الموجودة في السياق، والثانية: نظرية قوانين الخطاب وهي تعنى بالحجاج ودوره التأثيري، والثالثة: نظرية أفعال الكلام، وتهتم بوصف اللغة ليس في إطار ضيق من التعبيرات والأقوال بل في إطار أشمل من الأفعال وما تحدثه من تغيير في السلوك، وهي نظرية أوستن وتلميذه سيدال، وكل هذه النظريات الثلاث تعيها البلاغة في وعيها الجمعي، فالبلاغة تعنى بالتعبيرات والرموز وتحري اختيارها، وهي أيضا تهتم بالخطاب وتأثيره على المتلقي؛ لأنها تعتمد على جانبين مهمين: تفسير الخطاب والكشف عن جمالياته، وعن الحجاج ودوره الإقناعي، وهي بذلك تشارك التداولية في قضية فهم خصوصية استخدام جمل وتعبيرات دون غيرها فلا تقف عند المعنى الحرفي للكلام بل إلى تأثيره في المتلقين، كما تهتم بالأقوال في الاستعمال فلا تكون البلاغة بلاغة إلا بالتجربة والمتلقي والمتكلم هما طرفا هذه التجربة البلاغية.

ودور اللسانيات الغربية أنها قامت بعملية التنظيم والترتيب ووضع المصطلحات الجديدة والدقيقة وعددت التفريعات من ورائها، وهذا يعين المحلل في الدرس البلاغي الحديث على إدراك هذه الجزئيات، وعليه أن يعي خصوصية كل لغة وبلاغتها، فما كان عرفانيا مشتركا بين كل اللغات حسن تطبيقه، وما ظهر تناقضه لا يصح أن نلوي عنق اللغة وبلاغتها لتطبيقه بالقوة.

وقد قسم أوستن الفعل الكلامي إلى ثلاثة أفعال[1]: فعل لغوي، وفعل إنجازي، وفعل تأثيري؛ فالفعل اللغوي: يقصد تبليغ الرسالة عبر النطق السليم بالحروف التي تمثل المعنى اللغوي الصحيح، والفعل الإنجازي: يقصد إنجاز فعل بواسطة القول، وهو الحدث الذي يقصده المتكلم من الجملة، وفعل التأثير: يقصد التأثير العملي على المتلقي؛ كالإقناع، والإغراء، والتضليل، والتحذير وغيرها.

كما قسم الأفعال الإنجازية إلى خمسة أقسام هي: أفعال الأحكام: كالأحكام الصادرة عن القضاء، وأفعال القرارات: كالإذن بأمر ما، وأفعال التعهد: كالوعد، وأفعال السلوك: كالاعتذار عن موقف معين، وأفعال الإيضاح: كتبرير الاعتراض على قضية ما.

وهذه الأقسام تركز في أصلها على دور التداولية كأمر يهتم بالفعل لا باللغة فحسب؛ لذا كان اهتمام علماء التداولية بتقسيم الكلام وتحديد عدد من الاستعمالات للكلام منها: الإخباريات: بيان الصدق والكذب، والتوجيهات: توجيه المخاطب لفعل معين كالأمر والنهي، والالتزاميات: التزام المتكلم بفعل شيء معين في مستقبلا، والتعبيرات البوح عن مواقف النفس، الإعلاميات: موافقة اللغة للواقع الخارجي أي: ما بين النسبة الكلامية والنسبة الخارجية.

١ انظر/ مقاصد اللغة وأثرها في فهم الخطاب الشرعي، أحمد كروم، ص١٣٥.

وهذه الأقسام كلها أولتها البلاغة عنايتها في دراسة نوع الجملة من خبر موافق للواقع أو غير موافق، والإنشاء بتوجيهاته ودوره الطلبي بين المتكلم والسامع، والتعبير عما في النفس من صراعات من خلال اللغة، وحمل السامع على قبول الكلام وإنجازه إن كان في الكلام ما يحتاج إلى الإنجاز، كما بينت دور الإنشاء غير الطلبي من قسم وتعجب وغيره وبخاصة تلك الدراسات الحديثة في الدرس البلاغي العربي التي أولت هذا النوع من الإنشاء عنايتها لتخالف ما أهمله الأقدمون من قيم تعبيرية لهذه الأدوات والصيغ، والبلاغي يحشد كل أسلوب ويتخير كل مقام ويوظف ظاهر اللغة وباطنها واستواء اللغة وانحرافاتها وصريحها وتلميحها للتأثير والإقناع.

- **القصد والبلاغة**

القصد الإصابة في دقة ومهارة، وقصد المتكلم إصابة الحجة والكشف عن المطلوب بأيسر سبيل؛ ويقولون: "أقصد السهم: أصاب وقتل مكانه، كأنه وجد قصده"[1]، "ولذلك سميت القصيدة من الشعر قصيدة لتقصيد أبياتها، ولا تكون أبياتها إلا تامة الأبنية"[2].

والبلاغة العربية حملت معنى القصد على الغرض الذي يريده المتكلم من كلامه؛ فالخطيب القزويني مثلا؛ يقول في قوله تعالى: "﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌ﴾ ﴿الروم:٣٣﴾ بلفظ إذا مع الضر، فبالنظر إلى لفظ المس وإلى تنكير الضر المفيد في المقام التوبيخي القصد إلى اليسير من الضر وإلى الناس المستحقين أن يلحقهم كل ضر، وللتنبيه على أن مساس قدر يسير من الضر لأمثال هؤلاء حقه أن يكون في حكم المقطوع به"[3]، فجعل القصد هو المراد الأدق من تخير الألفاظ التي هي

١ المفردات: (مادة: قصد).
٢ مقاييس اللغة؛ لابن فارس: (مادة: قصد).
٣ الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين القزويني، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط٣، ١١٨/٢.

أثواب المعنى، وقد استعمل القصد في غير موضع بمعنى الغرض الذي تم من أجله تفضيل صيغة على صيغة أو كلمة على أخرى، أو أداة على أخرى كتفضيل (إذا) على (إن) في مثل هذه المواضع.

ولذلك كان "الغرض هو المقصود بالقول أو الفعل... وغرضي بهذا الكلام كذا؛ أي: هو مقصودي به، وسمي غرضا تشبيها بالغرض الذي يقصده الرامي بسهمه وهو الهدف"[1]، فالغرض والقصد هما وجهان لعملة واحدة فإذا ذكر الغرض أريد به قصد المتكلم، وأشار ابن الأثير إلى ما للقصد من مزية الدقة والإصابة وعدم الغلو؛ يقول: "فأما الاقتصاد في الشيء فهو من القصد الذي هو الوقوف على الوسط الذي لا يميل إلى أحد الطرفين؛ قال الله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ ﴿فاطر:٣٢﴾، فظلم النفس والسبق بالخيرات طرفان، والاقتصاد وسط بينهما"[2]، وهذا الوسط يعني إصابة المقصد، ولذا يؤكد على دقة العرب في اختيار ألفاظها ومعانيها، فإذا وجد المعنى ضبط له لفظ يساوية بدقة وبراعة؛ لأن: "إن العرب كما كانت تعتني بالألفاظ فتصلحها وتهذبها فإن المعاني أقوى عندها، وأكرم عليها، وأشرف قدرا في نفوسها؛ فأولت ذلك عنايتها بألفاظها، لأنها لما كانت عنوان معانيها وطريقها إلى إظهار أغراضها أصلحوها وزينوها، وبالغوا في تحسينها؛ ليكون ذلك أوقع لها في النفس، وأذهب بها في الدلالة على القصد"[3]، لأن إصابة القصد لا تكون إلا من خلال اختيار ألفاظ خاصة تحمل معان محددة ليس فقط على مستوى المفرد بل كان اهتمامهم بها بعد وضعها في سياق خاص بها ومراعاة السابق واللاحق على اللفظ لغرض الدلالة التامة على المراد.

١ الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص٥٠٤.
٢ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، عام ١٤٢٠هـ، ٢٩٨/٢.
٣ السابق، ٣٤٠/٢.

ويؤكد عبد القاهر على هذا؛ فيقول: "إنه لا يكون ترتيب في شيء حتى يكون هناك قصد إلى صورة وصنعة إن لم يقدم فيه ما قدم ولم يؤخر ما أخر وبدئ بالذي ثني به أو ثني بالذي ثلث به لم تحصل لك تلك الصورة وتلك الصنعة، وإذا كان كذلك فينبغي أن ينظر إلى الذي يقصد واضع الكلام أن يحصل له من الصورة والصنعة ؛ أفي الألفاظ يحصل له ذلك أم في معاني الألفاظ"[1]، فالقصد يفرض على المتكلم مراعاة نسق الكلام وترتيبه على الوجه الأمثل للإفهام.

وقد فرق ابن سنان بين المواضعة في الكلام والقصد منه؛ قائلا: "والكلام يتعلق بالمعاني والفوائد بالمواضعة لا لشيء من أحواله وهو قبل المواضعة إذ لا اختصاص له ولهذا جاز في الاسم الواحد أن تختلف مسمياته لاختلاف اللغات، وهو بعد وقوع التواضع يحتاج إلى قصد المتكلم به واستعماله فيما قررته المواضعة ولا يلزم على هذا أن تكون المواضعة لا تأثير لها؛ لأن فائدة المواضعة تمييز الصيغة التي متى أردنا مثلاً أن نأمر قصدناها، وفائدة القصد أن تتعلق تلك العبارة بالمأمور وتؤثر في كونه أمراً له؛ فالمواضعة تجري مجرى شحذ السكين وتقويم الآلات، والقصد يجري مجرى استعمال الآلات بحسب ذلك الإعداد"[2]، فالفرق بينهما شاسع بين الإعداد والفعل.

ومن الباحثين من يرى نوعين من القصد يمكن أن يعنيهما المتحدث بما يحملان من معلومات للسامع إلى قصدين: إخباري، وتواصلي؛ والأول هو: "القصد الإخباري، الذي يشكل الطبقة الأولى أو الأساسية من المعلومات، ويمكن أن تكون بخصوص أي شيء على الإطلاق، وثانيهما: القصد التواصلي، الذي يشكل الطبقة الثانية من المعلومات، وفيه تتكون المعلومات التي يمكن أن تفيد

١ دلائل الإعجاز، أبو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني، تحقيق: د.محمد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٥، ص٢٧٤.

٢ سر الفصاحة، أبو محمد عبد الله بن سنان الخفاجي، دار الكتب العلمية، ط١، عام١٩٨٢م، ص٤٢.

أن الطبقة الأولى من المعلومات قد أظهرت بصورة مقصودة"[1]، كما أشار "سيرل" إلى أن الحالات القصدية أنواع مختلفة، ولكل حالة مضمون قصدي (أو مضمون قضائي)، وقد تشترك الحالات القصدية في نفس المضمون القصدي رغم اختلافها في النوع (أو النمط النفسي)؛ فبملاحظة الجمل التالية:

– أعتقد أنك ستنجح هذا العام – أرغب أن تنجح هذا العام، – آمل أن تنجح هذا العام.

فهذه الجمل وردت في أنماط نفسية أو أشكال سيكولوجية متباينة وهي (الاعتقاد، والرغبة، والأمل)، ولكن لها نفس المضمون القصدي أو التمثيلي (وهو النجاح هذا العام) وهذا يشابه ما يعرف في نظرية أفعال الكلام المحتوى القضوي، والقوة المتضمنة في الفعل[2]، في ربط بين قوة الفعل لغويا ونوعية إنجازه خارجيا.

وقد كان للبلاغة العربية اهتمام بمقاصد التراكيب المستخدمة في سياق خاص، ففرقت في استعمال الخبر بين أن يكون لفائدة الخبر وهو إعلام السامع بالخبر وهو لا يعلمه، وبين أن يكون لازم الفائدة إعلاما له بمعرفة المتكلم بهذا الخبر، وبين أغراض أخرى لا حصر لها ينتجها السياق، وتعتمد الأخبار التي هي أفعال كلامية في الأصل على مطابقة الواقع أو عدم مطابقته صدقا وكذبا، وبين الإنشاء الذي يفيد طلبا وإنجازا لفعل لغوي، وقد بين عبد القاهر طرقا للقصد من خلال المعنى ومعنى المعنى؛ يقول في التفريق بين المقاصد على حسب درجات المعنى "الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلا بالخروج على الحقيقة، فقلت: خرج زيد وبالانطلاق عن عمرو،

١ نظرية الصلة أو المناسبة في التواصل والإدراك، سبيربر دان، وولسون ديدري، ترجمة: هشام إبراهيم الخليفة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط١، عام ٢٠١٦م، ص١٠٤.

٢ العقل مدخل وموجز، جون ر سيرل، ميشال حنا متياس، مجلة عالم المعرفة، الكويت، سبتمبر ٢٠٠٧م، ص ١٣٤، ١٣٥.

فقلت: عمرو منطلق، وعلى هذا القياس، وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل"[1]، ففرق بين المقصد القريب المباشر الحقيقي الذي لا يحتاج إلى تأويل، وبين آخر يحتاج إلى تدير ونظر، وكثير من المقاصد كان يذهب إلى المعنى من غير إشارة إلى المقصد غير المباشر المجازي الذي تتيحه له اللغة، والمقام أو الغرض هما اللذان يحملان الخطاب على المعنى أو معنى المعنى.

وقد جاءت خطابات طوائف المعاندين لتبين عن قصدهم في تعدد سبل التكذيب وتقديم الحجج على كذب الرسل والرسالات بطرق شتى، وحمل أسلوبهم هدفا واحدا وهو نفي وحدانية الله تعالى وإثبات الشرك، وهو أمر جاءت الرسالات جميعها للقول بعدم صحته بل وتأكيد الوحدانية بالأدلة والبراهين والمعجزات، وقابل المعاندون تكذيبهم بالحجج المخترعة، والسلطان، ورغم اختلاف طوائفهم عبر الأزمان والأمكنة إلا أن الإنسان هو الإنسان؛ لذا لم تتغير الحجج وطريقة سوقها كثيرا رغم هذه اختلافات.

والبلاغة هنا ليست جمالية بل دفاعية أحيانا، أو هجومية في أحيان أخرى على حسب الموقف الذي يدعوهم إلى المنافحة عن معتقداتهم الفاسدة؛ ولأن" "المتكلم لا يورد الكلام إلا حسب اعتقاده"[2]، لذا ساقوا الحجج وطلبوا حدوث معجزات بعينها دون ما قدم لهم، وما قدم لهم من معجزات لم يزدهم إلا استكبارا وتعنتا ورفضا، أما معجزة المائدة فقد طلبها الحواريون لهم ولغيرهم من بني إسرائيل، وقصدهم أن

---

١ دلائل الإعجاز، ص٢٠٣.

٢ حاشية السيالكوتي على كتاب المطول للتفتازاني، عبد الحكيم بن شمس الدين السيالكوتي، تحقيق: محمد السيد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٩/٢.

تكون لهم عيدا وآية، ولكن الله تعالى توعد من يكفر بعد هذه الآية بعذاب غير مسبوق؛ لأنه لم ينزل الآيات على وفق المنذَرين وما يريدون.

- **القصدية والحجاج**

يعرف الحجاج بوضوح المقصد فإذا أراد صاحب الحجة أن يبينها ويجليها لتكون أكثر تأثيرا في نفس المتلقي عليه أن يكون محدد القصد؛ والحجاج كما يرى شاييم بيرلمان: "درس تقنيات الحجاج التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة التسليم"[١]، وهدف المحاجج هو الرغبة في تسليم سامعه والانصياع لرغبته مع الأخذ في الحسبان ذلك القدر من الاقتناع بالأسلوب البلاغي مع البرهان القاطع من خلال آليات الحجاج؛ ومنها السلم الحجاجي الذي يفضي إلى التسليم والإذعان عبر درجات تفضي إحداهن للأخرى، ويتم ذلك من خلال "تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة"[٢]، وهذا ما يرمي إليه المعاندون في خطابهم من خلال تقديم عدد من الحجج التي رأوا أنها حالت بينهم وبين قبول رسالات الرسل، وأدى تمحيصهم –في زعمهم– لحججهم المختلقة وغير المقنعة إلى اقتناعهم بكذب الرسل وبطلان منهجهم وافترائهم على الله، وهو أمر ظاهر الكذب والضلال، فجمعهم الحجج كان لحشد المناصرين والأتباع والخوف من ضياع هيبتهم وسلطانهم لا غير، وقد وجدت حججهم الواهية قبولا عند من كان في نفسه هوى للرفض من المستضعفين.

[١] الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر، محمد سالم محمد الأمين، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، بيروت، ط١، سنة ٢٠٠٨م، ص١٠٧.

[٢] اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، دار العمدة في الطبع، المغرب، الدار البيضاء، ط١، سنة ٢٠٠٦م، ص١٦.

المبحث الثاني

مقاصد طوائف المعاندين ومقامات كلامهم

يعرض هذا المبحث لمقامات العناد عند طوائف المعاندين، وإن تكن متنوعة في ظاهرها إلا أنها بدت ظواهر مكرورة عند التدبر والمقارنة، ويرجع ذلك إلى طبيعة النفس البشرية الواحدة، وبيان المقام مهم في الكشف عن الأساليب البلاغية التي ركنوا إليها لكشف معتقدهم الفاسد، والمقامات متنوعة وكثيرة ومتداخلة؛ فالمقام الواحد يجمع صورا شتى من المقاصد والدلالات لطوائف المعاندين في النص القرآني، ومن بين هذه الطوائف الذين كان لهم خطاب يعارض تعاليم الرسالات السماوية، وقد تنوعت هذه الطوائف بين جماعات و أفراد، ولكل طائفة طبيعة ومنهج في الرفض.

لفظة العناد في القرآن

وردت لفظة العناد في القرآن الكريم أربع مرات جاءت على وزن فعيل (عنيد) في سياق الحديث عن شدة النفور من الحق، قال الراغب الأصفهاني:"العنيد المعجب بما عنده، والمعاند المباهى بما عنده. والعنود قيل مثله، قال: لكن بينهما فرق لأن العنيد الذى يعاند ويخالف والعنود الذى يعند عن القصد، والعنيد العادل عن الطريق في الحكم، وعند عن الطريق عدل عنه."١.

وتدور معانيه حول الإعجاب بالرأي، والعدول عن الطريق، والإعراض مع الجحود والجهر بالعداوة للدعوة والداع ، قال القرطبي: "والعرب تقول: عند الرجل إذا عتا وجاوز قدره، والعنود من الإبل: الذي لا يخالط الإبل، إنما هو في ناحية،

١ المفردات للراغب: (مادة: عند)

ورجل عنود إذا كان يحل وحده لا يخالط الناس والعنيد من التجبر، وعرق عاند: إذا لم يرقأ دمه، كل هذا قياس واحد"[١]

ووردت الآيات في سور هود، إبراهيم، ق، المدثر؛ قال تعالى: (كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا) (المدثر:١٦) يدور الكلام هنا حول صفات الوليد بن المغيرة خاصة الذي وصف القرآن أبلغ وصف ثم أعرض عنه وحاربه بكل سبيل، والآية "تعليل لذلك على وجه الاستئناف ١التحقيقي؛ فإن معاندة آيات المنعم مع وضوحها وكفران نعمته مع سبوغها مما يوجب حرمانه بالكلية."[٢]

وقال تعالى:(أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ} مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ} الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ) (ق: ٢٤-٢٦)، في هذه الآية جاء التوجيه الإلهي بإلقاء كل كفار عنيد في جهنم، ووضحت الآيات صفاته التي منها منعه للخير ثم وسمته الريبة والاعتداء؛ لأنه أشرك بالله من لا يستحق الشرك، آمرا ملائكته بإلقائه في العذاب، ووصف العذاب بالشديد وفي موضع آخر بالغليظ زيادة في مجازاته على العنت والعناد.

وقال تعالى: (وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) (هود:٥٩)، وصف الله تعالى رءوس الكفر من قوم عاد بالتجبر والعناد، وجعل من عارض دعوة النبي باتباع هؤلاء المعاندين، وكأن عدم اتباع الضعفاء لم يكن من جانبهم أو عدم اقتناع بالدعوة بل كان للقادة والجبارين دور في التخويف والترهيب.

---

١ الجامع لأحكام القرآن، شمس الدين القرطبي، تحقيق : هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، السعودية، ط ٢٠٠٣ م، ٧٢/١٩.

٢ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود محمد العمادي ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٥٧/٩.

(وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ} مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ} يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ) (إبراهيم:١٥-١٧)، وصف الله في الآيات خيبة المعاند المتجبر ووعده بالنار جزاء عناده وخصه بماء الصديد بما فيه من خبث المطعم والمنظر كما خصه بدنوه من الموت جراء تجرعه له ولكن كتب عليه البقاء فيذوق الموت ولا يموت، وخصه بالعذاب الغليظ دون الأليم والعظيم والمهين وغيره من أنواع العذاب، فعلى قدر العناد يكون العذاب.

وقد كشفت مجادلات طوائف المعاندين في الخطاب القرآني عن صفاتهم المجافية لكل دعوات الرسل إلى الهداية بل جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق بكل قوة وسلطان؛ وجاءت طوائفهم كالآتي:

المعاندون من الأمم والأقوام والجماعات.

من هذه الطوائف: أهل الكتاب إجمالا، أوتفصيلا: كاليهود والنصارى، والكافرون، والظالمون، والمشركون، والمنافقون، وكذلك الأقوام المكذبة للرسل، الذين جاءت الرسالات لعلاج أمراض قلوبهم وأكثرهم لم يؤمنوا ووقفوا في وجه الدعوة والرسل دفاعا عن معتقداتهم الفاسدة؛ وهم: قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم شعيب، وقوم لوط، وقوم إبراهيم، وقوم موسى وهارون، ونبي الله عيسى عليه السلام مع بني إسرائيل، وقوم محمد صلى الله عليه وسلم، ووردت كلمة أصحاب مع عدد من الأقوام المكذبة؛ فأصحاب الأيكة وأصحاب الرس، وأصحاب السبت، وأصحاب مدين، وأصحاب الأخدود، وأصحاب الحجر، وأصحاب القرية.

المعاندون من الأفراد.

من صور المعاندين من الأفراد الذين طغوا وتجبروا وعاند كل منهم على طريقته ليمثل النص القرآني بهذه الشخصيات لصورة المنكر الذي كفر بأنعم الله تعالى، واختار البحث بعض المعاندين الذين صدر منهم خطاب عناد ليعرض أسلوب

تكذيبهم من خلال أقوالهم وأفعال كلامهم؛ وهم كالآتي: إبليس/ الشيطان، والإنسان (والمراد به المعاند من البشر)، وأفراد لم يسمهم القرآن؛ نحو: قابيل، وفرعون، والوليد بن المغيرة، والعاق لوالديه، وأبيٌّ بن خلف، والنمروذ، أشقى ثمود، وجاء ذكر تركيب (ومن الناس) ليخص جماعة من الناس تجمعهم صفات مشتركة من العناد، كما ذكر بعضا من المعاندين بأسمائهم: كآذر، والسامري، وقارون، وهامان.

وقد أطلقت أسماء بعض المعاندين على سور من القرآن الكريم، فسور: الكافرون، والمنافقون، والهمزة، والمطففون، وأطلقت سور على بعض الأقوام؛ كسور: سبأ، والحجر، والأحقاف، والأحزاب، والجن، والإنسان، كما أطلقت بعض أسماء السور على معجزات الرسل اهتماما بها وإظهارا لقدرها وبيانها في مقابل كفر من كفر بها؛ نحو: البقرة، والمائدة، والإسراء، والكهف، والنمل، والقمر، والطور، والفيل، والمسد، وقريش، كما أطلقت أسماء الرسل على سور أخرى؛ نحو: آل عمران، ويونس، وهود، ويوسف، وإبراهيم، ومريم وطه والأنبياء، ولقمان، ويس، ومحمد، ونوح، والمزمل والمدثر.

وتظرا لتعدد صور هذه الطوائف تعددت المقامات وتباينت اتفاقا واختلافا حسب المواقف؛ وهي كالتالي:

١- مقام الكفر والاستكبار مع سوق الدلائل على صواب المعتقد.

ذكر إبليس في تفنيد رفض السجود لآدم عاملين دفعاه إلى عدم الخضوع لأوامر الله هما؛ الخلق من الطين، وتكريم آدم وتفضيله عليه، ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ ﴿الأعراف:١٢﴾، وقال: ﴿قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ ﴿الإسراء:٦١﴾، وقوله: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ ﴿الحجر:٣٣﴾، وقوله: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿الإسراء:٦١﴾، وقد رد إبليس أمر الله مبررا

رفضه هذا لنقيصة في خلق آدم مدعيا أفضلية النار على الطين، ولكن بؤرة العناد ومركزه كان لرفض السجود كونه أمرا من أوامر الله دون مناقشة نوع المسجود له، فقد أقسم الله بمخلوقاته وهو العظيم ولم يبح لعباده القسم بها.

نموذج آخر للاستكبار والعناد والاستعلاء، وهو (فرعون) الذي قصد في غير موضع أن يدعي الألوهية ويسوق الأدلة والبراهين على هذا؛ فوصفه القرآن بالطغيان؛ قال تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾﴿طه:٢٤﴾ ولما أراد أن يثبت كذب النبي بالدليل القاطع متخذا من هامان وزيره معينا على هذا؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿القصص:٣٨﴾، ويسوق الأدلة على ألوهيته مفتخرا بالأنهار التي تجري من تحته كدليل على صدق ادعائه؛ قال تعالى: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ} أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ ﴿الزخرف:٥١-٥٢﴾، وفي تحد للرسول ورسالته وخطابه المتعالي يصف موسى عليه السلام بالفساد، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ ﴿غافر:٢٦﴾، بل بلغ به العناد والكبر مبلغا يرى في رأيه وقوله صواب الاعتقاد علوا وتفاخرا؛ قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ ﴿غافر:٢٩﴾.

٢- مقام الطعن في الرسالات والمعجزات لهدمها.

مما يقوض الرسالات ويسهم في صرف الراغبين من المتلقين الذين تخلو أذهانهم عن الإعراض والاعتراض أن تقوم فرقة بحمل هؤلاء على عدم السماع أو بصرفهم عن طريق اللغو والذم في الرسالة؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا

تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ ﴿فصلت:٢٦﴾، فجعلوا اللغو والذم أساسا لصرف الناس عن سماع القرآن وبهذا تكون الغلبة؛ وقال تعالى عنهم: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿الأنعام:٢٦﴾.

وصور الطعن كثيرة منها وصف الرسالات بالاختلاق؛ قال تعالى: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ ﴿ ص:٧﴾، كما وصفوا البينات بالسحر؛ فقال تعالى لعيسى عليه السلام مبينا بعض نعمه عليه: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿المائدة:١١٠﴾، ومع موسى عليه السلام وصف المعاندون الآيات بالسحر أيضا: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿النمل:١٣﴾، وقال الوليد بن المغيرة في ذم القرآن الكريم؛ ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ} إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ ﴿المدثر:٢٤-٢٥﴾، ووصفوا الرسالات والبينات بالأساطير؛ نحو وصفهم ما جاء به رسول الله بهذا الوصف ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ﴿الفرقان:٥﴾، ووصفوه بالإفك القديم: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ ﴿الأحقاف:١١﴾ كل هذه الأوصاف كانت منهم لذم الرسالات والمعجزات التي جاءت بها الرسل لتيسير هدمها وتسفيه من يتّبعها، وقد "كان هذا الكلام ساقطاً في نفسه لما قام من الأدلة الباهرة على صدق القرآن وكان الوقوف مع المحسوسات غالباً عليهم لعدم نفوذهم في المعقولات، دل على بطلانه لموافقة القرآن لأعظم الكتب القديمة التوراة التي اشتهر أنها من عند الله"[1]، وقد كان لأسلوبهم هذا صدى بينهم فقد صرف صنوفا من الناس صدقت بمقالتهم فلم تستمع إلى الرسل ولم تتبين صدق ما جاءوا به اعتمادا على أقوال عتاة المعاندين خوفا منهم أو إيمانا بما

[1] نظم الدرر للبقاعي، ١٤١/١٨.

يقولون واعتقادا في صدق حديثهم، فحملوا أوزارهم وأوزار الذي أضلوهم بغير علم.

٣-مقامات ذم المعاندين للرسل.

أ-مقام وصفهم بالبشرية

لقد استعمل المعاندون في خطابهم أسلوب التحقير لجنسهم، وهو ما استخدمته كل طوائف المعاندين من آدم إلى محمد عليهم السلام، قال تعالى:﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ ﴿الأنعام:٩١﴾، لإنكار دعوة الرسل قد يقطع كثير من المعاندين الطريق لا لدحض الحجج بل لهدم القضية، فينكرون أن يكون الرسول من البشر؛ قال تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ ﴿إبراهيم:١٠﴾، فالمثلية تقتضي التساوي في العقل والقدرة، فلماذا التصديق بما تقولون، بل من عادة البشر تحميل المخالف له في القضايا الكبيرة فكرة المؤامرة؛ فلم يلتفتوا إلى القضية بل حكموا بأهوائهم على المرسل قصد تحقير الرسول ودعوته؛ فقلبوا القضية إلى رغبة هؤلاء الرسل في صدهم عن إرث الآباء، قال تعالى عن قوم نوح: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿المؤمنون:٢٤﴾، فهم يرون في النبوة فضل كبير لا يجب أن يكون في بشر حسدا منهم؛ لأن أكثر الرسل لم يكونوا ملوكا أو أغنياء، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ﴿الزخرف:٣١﴾، أو قالوا إن ما يأتي به ليس من عند الله كما يزعم وهذا أولى بالرفض والتكذيب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾﴿النحل:١٠٣﴾؛ فنسبوا ما جاء به إلى بشر يعلمه.

وقد اتكأ قوم نوح في عنادهم وكفرهم على بشرية نوح التي توجب–في زعمهم– رفض رسالتة وصد الناس عنه؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ} وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ} أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ} هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ} إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ} إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿المؤمنون:٣٣–٣٨﴾، ففي خطاب الإنكار هنا ترتيب وتلاعب بعقول السامعين؛ وبخاصة أن الذين يوجه إليهم الحديث هم الأتباع أو الضعفاء، والمرسل هم الأغنياء كما هو واضح من تعبير ﴿وأترفناهم﴾، وفي خطابهم الإقناعي الذي استخدم السلم الحجاجي في طرح أسباب رفضهم للرسل وحث السامعين على الاستجابة أن هؤلاء الرسل بشر مثلهم بل إنهم يأكلون ويشربون مثلهم، وطاعة البشر خسران في استدعاء صورة نوع بغيض من البشر في أذهانهم، ثم التكذيب بالبعث بعد الموت إذ كيف يرجع الإنسان على ما كان عليه بعد أن صار ترابا، ونعت الرسول بالكذب والافتراء على الله، وختم الكلام بإعلان الأقوياء من الأغنياء عدم الإيمان ﴿ما نحن له بمؤمنين﴾، فكيف بالأتباع والمستضعفين، وفي خطاب التلاعب والتكثيف الذي اعتمدوا فيه على التركيز على لفظ البشرية والمثلية مرتين، وختم الكلام بذكر كلمة (رجل) وهي تأكيد ثالث للبشرية مع اختلاف اللفظ واتفاق المعنى، فكأنهم بتكرارهم هذا يؤكدون صدق كلامهم في كونه لا يصلح للرسالة.

وقد اتفقت الأمم والأقوام على وصف الرسل بالبشرية من رسالة نوح عليه السلام إلى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وذكر القرآن مقالتهم ورد الرسل عليهم بكونهم بشر ولكن ما هم فيه ليس باختيارهم فهم مرسلون من الله بأمر الله؛ فقال

تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ} قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ} قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿إبراهيم: ٩-١١﴾؛ فمدار الأمر حول الاتهام بالبشرية ومحاولة لرسل تبرير بشريتهم هذه بأنها في صالح الدعوة؛ فلو كان المرسل ملكا لقالوا لا طاقة لنا على اتباع ما جاء به من تكليفات فلا يستطيعها إلا ملك.

ب-مقام وصفهم بالجنون:

وصف ثلاثة من الرسل بالجنون في القرآن الكريم؛ فنوح عليه السلام: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾﴿القمر:٩﴾، وفرعون وصف موسى عليه السلام بالسحر والجنون ؛ ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ} فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾﴿الذاريات: ٣٨- ٣٩﴾، ووصف الكافرون رسول الله بهذا الوصف؛ ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾﴿الصافات:٣٦﴾، ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾﴿الصافات:١٤﴾، وهذه الصفة سائدة عند أكثر جمهور المعاندين؛ قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ } أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾﴿الذاريات: ٥٢-٥٣﴾، وهنا يتضح أن الصفتين الغالبتين على الأقوام في تكذيب الرسل نعتهم بالسحر أو الجنون، وقد أخبر القرآن عن نعت هؤلاء المعاندين رسلهم بالتباسهم بالجنون، يقولون:﴿به جنة﴾ في ثلاثة مواضع من النظم القرآني؛ منها قول قوم نوح عن نبيهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى

حِينٍ﴾﴿المؤمنون:٢٥﴾، وقال كفار مكة: ﴿أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ ﴿سبأ:٨﴾، والرمي بالجنون للتخويف وصرف الناس عن السماع له؛ لفساد قوله ولمخالفته العقل، فالجنون مخالفة العقل للنفس، فمن خالف عقله نفسه كيف يتبعه الناس ويأمنون على ذواتهم.

ج-مقام وصفهم بالسحر

نسب المعاندون السحر تارة إلى الرسل وتارة إلى الرسالات؛ اعتمادا على ما يظهر من الفُرقة بين الجماعة الواحدة التي يتبع بعضها الرسل ويعرض الآخر، فكان لهذه الظاهرة توظيف في إقناع كبار المعاندين لأقوامهم.

وورد لفظ ﴿السحر﴾ معرفا ست مرات: مرة تعليم الشياطين السحر للناس، ومرة في وصف كفار مكة للقرآن ﴿أفتأتون السحر﴾ وأربع مرات في سحرة فرعون، كما ورد منكرا على لسان المعاندين في أربعة عشر موضعا من القرآن، جاءت تسعة مواضع منها في وصف محمد -صلى الله عليه وسلم-؛ بأوصاف هي: سحر مبين في ستة مواضع، وسحر يؤثر مرة، وسحر مستمر مرة، وسحر دون وصف مرة، ووصف نبي الله عيسى عليه السلام مرة بالسحر المبين، ومرّتان مع موسى عليه السلام بالسحر المبين مرة وبالسحر المفترى مرة أخرى، ومرّتان في كلام قوم فرعون عن إعدادهم سحرا عظيما مثل سحر موسى كما يزعمون، كما وصف قوم صالح وشعيب نبيهما بأنهما من المسحَّرين.

وفي سياق الحديث عن وصف الرسل بالسحر وصف المعاندون الرسالات به أيضا؛ فالآيات والبينات والحق والقرآن والبعث والمعجزات كلها سحر في اعتقادهم أو في طريقتهم للصد عن الرسالات، فأحيانا يرى قوم صدق الرسول لما عرفوا من أخلاقه فيؤمنوا بالرسالة لصدق الرسول عندهم، وصنف تجذبه الرسالات في

إعجازها فتكون سببا في هدايته، ومن هذا الجانب كان ذم المعاندين فمرة للرسل ومرة للرسالات على حسب جهلهم أو تجاهلهم.

ومقاصد المعاندين من وصف الرسل والرسالات بالسحر كانت لما في هذه الرسالات من معجزات باهرات؛ فموسى عليه السلام أويد بالمعجزات البينات؛ كالعصا واليد وهي معجزات مبصرات، ورغم وضوحها إلا أنهم لم يؤمنوا خوفا من فرعون لا لضعف البينات أو تقصيرها، ومثله عيسى عليه السلام في إبرائه الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، ومحمد صلى الله عليه وسلم في معجزة انشقاق القمر، والإسراء والمعراج، كما رأوا الحق ظاهرا في بيان آيات القرآن التي أعجزت فصاحتهم.

وورد لفظ ساحر سبع مرات؛ منها خمس مرات في موسى عليه السلام لما كان بينه وبين السحرة؛ فمعجزته دحض السحر ورد كيد فرعون وسحرته، وورد ساحر في وصف النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في سورة ص؛ قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ ﴿ص:٤﴾ وصفوه بالسحر والكذب؛ فهو ساحر لأنه جعل الآلهة إلها واحدا، ويؤكد ذلك وصف الأمر بالعجيب، وهو كذاب لأنهم لم يسمعوا بهذا الكلام في الملة الآخرة ويؤكد ذلك وصف الأمر بالاختلاق، على طريقة طي الكلام ونشره لإقناع السامع بذكر الإجمال ثم تفصيل المجمل في الآيات التي بعدها.

وقد اقتصر وصف ﴿ساحر﴾ على ثلاثة من الرسل هم محمد وعيسى وموسى عليهم السلام، كما اقتصر وصف الجنون في القرآن على ثلاثة رسل هم محمد ونوح وموسى عليهم السلام، ولم يذكر رسل وصفوا بهذه الصفة أو تلك إلا هؤلاء كأمثلة للمعارضة والتكذيب؛ ولكن قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ ﴿الذاريات:٥٢﴾ يوحي بأن الأمم وصفت الرسل

إما بهذه الصفة أو تلك أو بالصفتين، ووصف قوم صالح وشعيب رسولهما بالمسحرين؛ قال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ ﴿الشعراء:١٥٣و١٨٥﴾

٤-مقام الحجاج (التمسك بإرث الآباء)

أبان النص القرآني عن قصد المعاندين رفض دعوات الرسل، وصدروا سببا لهذا وهو اتباع الآباء، كما أنكروا سماعهم بمثل هذه الدعوات من قبل؛ قائلين: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾﴿المؤمنون:٢٤﴾ و﴿القصص:٣٦﴾، وذكر القرآن هذا مع قوم نوح وموسى عليهما السلام، وقد فصل القرآن قولهم في خطاب هذه الأقوام لأنبيائهم؛ فقوم عاد: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ ﴿الأعراف:٧٠﴾، وقوم صالح: ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ ﴿هود:٦٢﴾.

وجمع القرآن أقوام نوح وهود وصالح والذين من بعدهم؛ أي أن كل الأقوم قالت بهذا الكلام؛ فطريقة إنكار الدعوة والتصريح بالكفر، سببه أن يكون الرسول بشرا مثلهم، وتمسكهم بإرث الآباء بل جعل الرسل كمن جاء للصد والصرف قصدا، وفيه تعريض لمن آمن بالرسل؛ كيف يترك ما وجد عليه آباءه، قال تعالى:﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ} قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ ﴿إبراهيم:٩-١٠﴾

وقوم شعيب: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ ﴿هود:٨٧﴾، وقوم موسى:﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾﴿يونس:٧٨﴾، وقوم إبراهيم:﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ

التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ } قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿الأنبياء:٥٢-٥٣﴾، ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾﴿الشعراء:٧٤﴾

ومشركو العرب مع محمد صلى الله عليه وسلم:﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾﴿المائدة:١٠٤﴾،﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾﴿الأعراف:٢٨﴾، ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾﴿ الزخرف: ٢٢﴾

كل الأقوام ذكرت ذلك لأنها في نظرهم حجة ظاهرة على قوة عذرهم، بل هي محمودة لهم أن يسيروا على نهجهم: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ ﴿الزخرف: ٢٣﴾، وقول المترفين يعني أن هذه الرسالات سوف تسلب مجدهم وعزهم وجاههم، مع مساواتهم بغيرهم من خدمهم، فيرفضون ذلك، وهذا الرفض إذا جاء من السادة قبله المستضعفون؛ ويوم القيامة: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿سبأ:٣١﴾، وقد جاءت في أسلوب التعبير عن قضية اتباع الآباء ألفاظ رفض الإعراض عما كان عليه السابقون: (نذر، نعبد، نترك، تصدونا، ألفينا، تلفتنا، وجدنا) مع تكرار (وجدنا آباءنا) ثماني مرات في حديثهم.

وسجل القرآن هذا القول الذي أنكروه بعد أن جمعهم وهم في الأشهاد؛ لعلمه تعالى بعنادهم وكفرهم وسوء سريرتهم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ} أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ ﴿الأعراف:١٧٢-١٧٣﴾، واختص هذه القضية بالذكر لخطرها فما من أمة إلا حاولوا إلصاق التهمة بآبائهم من جهة، والبرهان على أن ما يقولون به هو المنطق العقلي السليم وهو ما عليه قياسهم، فأهملوا الآيات البينات كما أهملوا الحق الواضح، واستمسكوا بالأباطيل كحجة مقنعة.

وإن كان القرآن قد ذكر أقوال المعاندين من أقوام نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم وموسى ومحمد كأمثلة على تبني هذه الحجة عند هذه الأقوام إلا أنه أبان أيضا تقدم هذه الحجة عند هؤلاء فهي الأساس في الجدل، ووجودها عند غيرهم حجة من بين الحجج.

٥-مقام السخرية والتحقير

يحرص المعاندون على الاستهزاء بالرسل وتحقير شأنهم مستخدمين اسم الإشارة الذي يحمل التعظيم والتحقير؛ فيوظفونه في التحقير طريقة منهم في اختيار ما يحمل الضدين؛ فيكون حمله على التحقير أكثر إيلاما؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا} إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ﴿الفرقان:٤١-٤٢﴾ وزاد في التركيب حذف المفعول به "إشارة إلى حال نفوسهم، فإن حقدهم على النبي صلى الله عليه وسلم جعل نفوسهم تتخاذل، فلا تقول: بعثه وكأنهم يتحاشون النطق بذلك"[١]، زيادة في الازدراء والتعالي، "والمقصود منه تفاخرهم بتصلبهم في دينهم وأنهم كادوا أن يتبعوا دعوة الرسول بما يلقيه إليهم من الإقناع والإلحاح؛ فكان تأثر أسماعهم بأقواله يوشك بهم أن يرفضوا عبادة الأصنام لولا أنهم تريثوا، فكان في التريث أن أفاقوا من غشاوة أقواله وخلابة استدلاله واستبصروا مرآه؛ فانجلى لهم أنه لا يستأهل أن يكون مبعوثا من عند الله"[٢].

وقد حقروا شأنه وقدموا الحجج على صلابة دينهم وصبرهم على آلهتهم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿الأنبياء: ٣٦﴾ يحقرون النبي مع ذكر الحجة

[١] خصائص التراكيب، د.محمد محمد أبو موسى، ص٣٥٧.
[٢] التحرير والتنوير ١٩/٣٣- ٣٤.

على ذلك؛ بأن هذا القول يصدر من مثل هذا الرجل استهانة منهم –لعنهم الله– و"لو شاهدوه على ما هو عليه من أوصاف التخصيص، وما رقَّاه الله من المنزلة؛ لظلوا له خاضعين، ولكنهم حُجبوا عن معانيه وسريرته، وعاينوا منه جسمه وصورته"[1]، وقد سخروا من الضعفاء والتابعين الذين آمنوا مع رسول الله؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ ﴿الأنعام ٥٣﴾.

٦-مقام التحدي والتعجيز

يقدم المعاندون الدلائل على عجز الرسل في تحد واضح لهم؛ مما يبين حنقهم وطيشهم؛ لأن الآيات البينات التي جاء بها الرسل تثبت صدق رسالتهم، ولكن فريقا من المعاندين تأخذه العزة بالإثم فيتحدى الرسل بطلب تعجيل العذاب لإثبات عجز الرسل؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ ﴿طه:١٣٤﴾ فهم مراوغون على كل حال؛ فلا هم مؤمنون بما ظهر من حجج؛ لأن في ذلك خضوع وهم مستكبرون، ولا هم أيقنوا بكذبهم وصدق الرسول فتلطفوا وتباطئوا في تحديهم بنزول العذاب.

وتحديهم مرة باستعجال العذاب: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿الأنفال:٣٢﴾، ومرة يتحدون باتباع آبائهم ويدعون الرسول إلى تحقيق وعيده: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿الأعراف:٧٠﴾، ومن الأقوام من تحدى بقوته التي أعطاها الله لهم؛ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ ﴿فصلت:١٥﴾، ولأهل الكتاب أسلوب في التحدي

[1] لطائف الإشارات، للقشيري، ٥٠٢/٢.

والتعجيز؛ قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ ﴿النساء:١٥٣﴾، وهم مبالغون في طلب الآيات فقد سألوا موسى عليه السلام آيات كثيرة، و"الرسل لا تجيء بإجابة مقترحات الأمم في طلب المعجزات بل تأتي المعجزات بإرادة الله تعالى عند تحدي الأنبياء، ولو أجاب الله المقترحين إلى ما يقترحون من المعجزات لجعل رسله بمنزلة المشعوذين وأصحاب الخنقطرات[١] والسيمياء، إذ يتلقون مقترحات الناس في المحافل والمجامع العامة والخاصة، وهذا مما يحط من مقدار الرسالة"[٢].

٧- مقام التحسير

يستخدم المعاندون وبخاصة المنافقون منهم التحسير والحسرة؛ لبث الفرقة في نفوس الصف الواحد من خلال أسلوب التعريض الذي يفت في عضد المجتمع المتماسك، ويتخذون من خفاء حالهم وكفرهم طريقة للوصول إلى مآربهم، ويكثرون من هذا الأسلوب في مقام الخروج إلى الحرب أو حال الموت؛ قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿آل عمران: ١٥٦﴾ أي: ما قتلهم إلا الخروج بجعله سببا في هلاكهم، وهم يرمون من وراء ذلك تخاذل من بقي ولم يمت، لفلولا فعل الشرط وهو الخروج ما كان الجزاء وهو الموت.

١ الخنقطرات: علوم روحانية خاصة بالسحر.
٢ التحرير والتنوير ١٤/٦.

وقال تعالى عنهم: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿آل عمران:١٦٧-١٦٨﴾، وقال تعالى عنهم: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا} وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ ﴿النساء:٧٢-٧٣﴾

٨-مقام إنكار البعث

أنكر المعاندون البعث من خلال العهد الذي ألفوه من تحول الجسد وفنائه بأن يصير عظاما ثم رفاتا وترابا، ففي موضعين من سورة الإسراء يتعجبون من تحول حالهم، ويجعلون من هذا التحول مصدر تكذيب؛ ولذلك ساد الاستفهام الاستنكاري مع البعث والنشور؛ قال تعالى:﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ﴿الإسراء:٤٩،٩٨﴾ ونسوا أن الذي يبدأ الخلق أهون عليه أن يعيده؛ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ﴿العنكبوت:١٩﴾

وفي تساؤلهم عن التعجب من حدوث الإعادة ﴿يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ} أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً﴾ ﴿النازعات:١٠-١١﴾، وقد سيقت هذه الآيات لتذكير منكري البعث"ردّا عليهم وإنذارا لهم، واستهدفت فيما استهدفته إثارة الخوف فيهم وحملهم على الارعواء ...ولقد تكررت حكاية تساؤل الكفار عن بعثهم بعد أن يكونوا عظاما نخرة وتكرر الردّ عليهم ووصف ما سوف يحلّ بهم بما يقارب ما جاء في هذه الآيات حيث كانت تتجدد المواقف فتقضي حكمة التنزيل بتجدد الحكاية والردّ استهدافا للهدف"[١]، وقولهم هذا على سبيل التعجب والاستبعاد والتكذيب والعناد والكفر، كرر في مواضع إنكارهم العودة بعد أن صاروا ترابا تسع مرات؛ مؤكد على مقصدهم في إثبات صدق ادعائهم إنكار البعث بعد الموت لاستحالة الأمر واستبعاد الرجوع والبعث؛ لمخالفته العادة.

١ التفسير الحديث، دروزة محمد عزت، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط ١٣٨٣ هـ، ٤١٢/٥.

وقد أكد البيان القرآني على خلقهم من التراب في ستة مواضع، وبين أن ما يرى من تحول الأجساد إلى التراب أمر طبيعي؛ لأنها المادة التي أنشأهم منها، وخطاب المعاندين كثيرا ما يجمع إلى جانب التراب ذكر العظام، وورد ذلك خمس مرات في مواضع هذا الإنكار.

وبجمع مواضع هذا الإنكار يتبين اختلاف بعض التراكيب ظاهرا لكن المعنى واحد بل يوحي باستقصاء كل ما قيل في هذه القضية؛ فينكرون أنهم إذا صاروا إلى التراب وكانوا خلقا جديدا كيف يعودون لما كانوا عليه من قبل، ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿الرعد:٥﴾، ويحظى الاستفهام التعجبي من البعث واستحالته ذكرا كثيرا؛ لأنه القضية الأكثر تركيزا في حواراتهم فبإنكارها يهدم كل قضية ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾﴿المؤمنون: ٨٢﴾، و﴿الصافات:١٦﴾، ﴿يس:٤٧﴾، ﴿الواقعة:٤٧﴾، وأنكروا الإخراج كما البعث: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ ﴿النمل:٦٧﴾، و ﴿المؤمنون:٣٥﴾.

ويعرض البيان القرآني لموقف حي من مواقف الغيب لعاقبة هذا الإنكار بين قرينين كانا في الدنيا يقول أحدهم للآخر: ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ ﴿الصافات: ٥٣﴾، فقد كان هذا القرين ينكر الحساب والجزاء بعد الموت، ولكنه رأه بعد الموت في الجحيم، ويوحي تعبيرهم: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾﴿ق:٣﴾، تمكن الاستحالة من نفوسهم، واستئناسهم بهذا القول، فبعضهم كان يقوله إقناعا للأتباع الضعفاء أو للمؤمنين الذين اتبعوا الرسل رغبة منهم في زعزعة يقينهم، وهم "يريدون تعجيب السامعين من ذلك تعجيب إحالة لئلا يؤمنوا به، وجعلوا مناط التعجيب الزمان الذي أفادته ﴿إذا﴾ وما أضيف إليه، أي زمن موتنا وكوننا ترابا"[1]، فغرض الاستفهام استبعاد الرجوع بعد كل هذا.

[1] التحرير والتنوير ٢٨٠/٢٦.

المبحث الثالث

خطاب طوائف المعاندين في البيان القرآني بين البناء والمقصد

تتعدد صور استعمال اللغة عند المعاندين حسب القضية، فتراهم يستعملون النهي في موضع والخبر في آخر والأمر في ثالث والنداء والتمني في موضع رابع وغير ذلك حسب خواص كل تركيب وكل مقام، وفي كل موضع من هذه المواضع اتجه مرادهم إلى الظفر بالباطل دون دليل واضح أو حجة قاطعة بل كان اختيارهم للأسلوب هو المتكأ الواضح لبيان صدق زعمهم، وهو غير كاف فإلى جانب شق اختيار أساليب اللغة المعبر بها يجب أن تكون لديهم حجة واضحة وسياقا خارجيا يعضد السياق اللغوي؛ وفي سطور هذا المبحث طريقة المعاندين في هجومهم ودفاعهم وتطاولهم وأحيانا ضعفهم وذلهم مع التحول الأخروي وبطلان مراوغاتهم التي كانوا يفرضونها على المستمعين لسلطانهم في الدنيا، أما الآخرة فلا سلطان لهم فيها؛ فبدا تحول الأسلوب مع تحول المقام، ومن سمات خطابهم ما يأتي:

أولا: خواص الأساليب السجالية للمعاندين في رفض دعوات الرسل

تعددت سبل تعبير المعاندين عن قناعاتهم التي حملت جدالا واضحا ظهر من خلاله رفض الرسل والرسالات مع صدق الرسل وظهور الرسالات؛ لذا لجأ المعاندون إلى الأساليب اللغوية والفنون القولية والمناورات السجالية لإثبات كذبهم ومن هذه الأساليب ما يأتي:

١ – <u>البعد التداولي في أسلوب النهي</u>

من الأفعال الكلامية ذات التأثير فعل النهي، وله دور في حث المخاطب على الإذعان لأمر ربما يقع منه في المستقبل تنبيها على تركه، وله دورا في ردع السامع والتأثير فيه وحثه على إنجاز ما يطلب منه؛ لأن طبيعة الفعل قائمة على الاستعلاء ثم خرج إلى أغراض يبرزها السياق ولكن رائحة الطلب تبقى بقوة في

التكوين اللغوي للنهي؛ ويختلف النهي إذا كان من الأعلى الى الأدني فيكون ملزما، أما إذا كان من الأدني إلى الأعلى فيكون التماسا وتتنوع أغراضه على حسب ذلك.

واستخدام فعل النهي ليس كثيرا في خطاب المعاندين؛ ومما ورد في خطابهم النهي عن سماع القرآن والدعوة إلى الخوض فيه؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ ﴿فصلت: ٢٦﴾، واختاروا عدم السماع والخوض في القرآن قصدا لإدراكهم لنفوس البشر التي يؤثر في توجيهها السمع، كما أنهم يعرفون قدرة القرآن على استمالة القلوب والنفاذ إليها عبر الأسماع، كما أنهم يعرفون أن صرف الناس عنه يكون بوسمه بالعيب والنقص ومعارضته بالشعر والصفير وإعلاء الصوت، وهذه الأمور من المساعدة للنهي الأول وهو عدم السماع؛ وقد قال تعالى في صدهم عن القرآن: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿الأنعام:٢٦﴾، وختمت الآية برجاء الغلبة، فالقضية عندهم انتصار الشرك وصرف الناس عن الداعي كبرا بكل طريق لا وصولا إلى الحق.

٢- <u>مسلّمات الإخبار عند المعاندين</u>

لابد للخبر من جانبين أساسيين ليكون صادقا وإلا عد ضربا من الكذب والوهم والادعاء؛ وهما: السياق اللغوي والسياق المقامي،"ويذهب (غاردنر) على سبيل التدقيق إلى أن الجملة الخبرية إنما يكون المسند صادقا أو كاذبا في تعلقه بالمسند إليه، ويشير من ناحية أخرى إلى أن الجمل الخبرية تكون مصحوبة بعدد من المقتضيات المتعلقة خصوصا بصدق المتكلم وما له من معارف في شأن ما يتحدث عنه وصدق الجملة نفسها"[١]، وقد قدم المعاندون للمتلقي أخبارا تخالف الواقع لعدم

١ القاموس الموسوعي للتداولية، تأليف جاك موشلر و آن ريبول، ترجمة نخبة من الأساتذة بالمركز الوطني للترجمة بتونس بإشراف عز الدين المجدوب،، منشورات دار سيناترا، تونس ٢٠١٠م، ص ٥٤.

التطابق بين ركيزتي الجملة أو بين الخبر ومقتضياته الخارجية، فقد كان في طرحها حرصا على الجدل والتشويش على الرسالة والرسل، وطريقتهم في ذلك إما تكذيب الرسل والإخبار عنهم بما ليس فيهم، أو ذم الرسالات وإنكار ما جاءت به وتفنيدها بالجدال لا الحجاج، وقد كذبت أخبارهم جملة وتفصيلا لمخالفتها الواقع والبراهين والدلائل؛ وهنا عدد من الأخبار الواردة عن المعاندين ؛ ومنها:

وصف المعاندون القرآن بأضغاث الأحلام، وقالوا إن رسول الله افتراه ووصفوهما بالسحر المبين، وبالإفك القديم، وبأنه أساطير الأولين؛ قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ ﴿الأنبياء٥:﴾، ووصفوه بالشعر لما للشعر عندهم من منزلة استمالة القلوب والأفئدة وهو ذروة سنام كلامهم، فلما جاءهم هذا الكلام العالي لم يستطيعوا دفعه، فنسبوه إلى أعلى كلامهم اضطرابا في نسبة الشيء إلى غير جنسه، وتواترت أخبارهم قصد التأثير والإقناع لمنع الناس عنه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ ﴿الأحقاف:١١﴾، وفي مناورة منهم ادعوا بأنهم قادرون على الإتيان بمثله؛ ووصفوا آياته بالأساطير القديمة؛ كطريقة لصد من لا يعرف شيئا عن الأمم الغابرة: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿الأنفال:٣١﴾

والأخبار هنا جميعها أخبار كاذبة سواء في وصف الرسول أو الرسالة بالكذب والأساطير والإفك؛ لأن الرسالات والرسل لم تأت على ما يرغبون بل كانت ضد إراتهم وسلطانهم وأعرافهم الفاسدة؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ} إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ ﴿غافر: ٢٣-٢٤﴾، وهي سمة خطاب المكذبين؛ ففرعون وسم موسى بالسحر؛ قال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾ ﴿الإسراء: ١٠١﴾، ووصف قوم موسى رسوليهما به: ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾﴿القصص:٤٨﴾

ومن أخبارهم التي أرادوا بها فعل التأثير وتحويل أذهان السامعين إلى وضوح الحجة، تكرار اتباعهم للآباء والأجداد وهذا يهدم وجود الرسالات من قبل، وأن ما جاء به الرسل من قِبل البدعة؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ ﴿الأعراف: ٢٨﴾، ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ}كَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿الزخرف: ٢٢-٢٣﴾، ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ ﴿الأنبياء: ٥٣﴾ أي: التماثيل، فالإخبار باتباع الآباء قصدوا من خلاله سوق الأدلة والبراهين على صواب معتقدهم.

كما وردت أخبار في الغلو وفساد المعتقد، فقالت النصارى بالثالوث وهو قول مردود بلا دليل عقلي أو منطقي؛ ولكنهم آثروا صوغ الكلام على طريقة الإخبار بل وتأكيد الخبر بأدوات التأكيد القاطعة؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿المائدة:٧٣﴾، ومثلهم اليهود لما نزل قول الله تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ قالوا: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ﴿آل عمران:١٨١﴾ وصياغة الخبر تحمل الإصرار والتأكيد على ادعائهم الباطل؛ فلم يستخدموا الخبر مجردا من التأكيد بل أكدوه، وذكروا الاسم الجليل دون غيره من أسمائه العلا، واختاروا ﴿فقير﴾ دون غيرها من الأوصاف، ولم يكتفوا بذلك بل نسبوا إلى أنفسهم الغنى بأسلوب التضاد الذي كشف عن سوء تقديرهم وإصرارهم على الكفر.

ومن طرق التعبير عن الخبر تكرار أداة التوكيد ليقرع السمع مرتين، وليختص كل خبر بما يحويه زيادة في ذم الرسول هود عليه السلام؛ ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ

قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿الأعراف:٦٦﴾، واتسم الأسلوب بالغلظة في خطابهم للرسول، وتكرار مؤكدين في كل جملة واختيار حرف الجر ﴿في﴾ دلالة على انغماسه في السفاهة والطيش فكيف يكون اتباعه، وفي الثانية من الكاذبين فهو جزء أصيل في رأيهم من الكذب، وهذه صفة وصفت بها الأقوام جميع رسلها، والمتكلمون سادات القوم وهم يعرفون كذب كلامهم ومع هذا فقد أسقطوا عليه ما هم فيه من السفاهة والكذب.

وعند نزول البلاء يستعمل المجرمون تأكيد الإخبار عن أنفسهم بالظلم؛ ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿الأعراف:٥﴾، وتكرر في الأنبياء قولهم: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿الأنبياء:١٤﴾، ﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿الأنبياء: ٤٦﴾، ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿الأنبياء: ٩٧﴾، فقد أفاد الخبر التنديم على إنكارهم، لما رأوا تحقق الوعيد وقد ظنوه بعيدا، وقد تقدم تأكيد الخبر في الآيتين ١٤ و٤٦ ولم يؤكد في الثالثة فظلمهم لأنفسهم ثبت بثبوت العذاب، وومن ثم أكدوا غفلتهم عن هذا البيان الواضح بحرف التوكيد (قد)، ومع ما هم فيه من اضطراب يظهره استعمال حرف الإضراب (بل) الذ يفيد الترقي في الغواية من الغفلة إلى الظلم.

٣- توجيهات أسلوب الأمر

الأفعال الكلامية الناتجة عن الأمر في خطاب المعاندين تستتبع تحديا وتعجيزا وهو غرضها الأسمى؛ لأن الأمر طلب الفعل على جهة الاستعلاء، وهو عند أوستن من الأفعال الإنجازية التي تقع بمجرد التلفظ بها، وهو يختلف عن "الجمل الوصفية التي تصف حدثا دون أن تحقق فعلا"[١]، ولكن ليست كل أفعال الأمر تختص بإنجاز فعل

١ الملفوظية، جان سيرفوني، ترجمة د. قاسم المقداد، منشورات كتاب الاتحاد العربي، دشق، ١٩٩٨م، ص ٣٠.

من الأفعال ولكن تأتي لطلب حدوث الفعل، ولذلك أصاب سيرل عندما أدرج الأمر ضمن التوجيهات من أفعال الكلام، وقد وظَّفت هذه الطوائف الأمر توظيفا يوافق أهواءهم؛ نحو قولهم لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾﴿يونس: ١٥﴾، كيف لرسول أرسل من قبل الله أن يرد قرآنا لا يقبلوه ليأتي بقرآن يقبلوه، وجاء وصف القرآن من جنس عنادهم إهم بهذا كمن لا يرجو لقاء الله، وقد ورد هذا التركيب ﴿الذين لا يرجون لقاءنا﴾ عنهم أربع مرات في النظم القرآني، ومرتين ﴿لا يرجون نشورا﴾ و﴿لا يرجون حسابا﴾، وهذا وصف لبعدهم عن إدراك الإيمان، فمن يرد تبديل شيء جيء به من عند الله لن يقبل بغير هذا كبرا .

وكذلك دعوات المعاندين طلب رؤية الله أمر ليس في طاقة الرسل؛ لذا كان أسلوب التعجيز واضحا في الخطاب فإذا عجز الرسول عن تلبية المطلوب قدموا هذا لأتباعه على أنه نقص في الرسول: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ ﴿النساء: ١٥٣﴾ فإذا عجز عن إنزال كتاب أو أراهم الله فما هي معجزاته، وفي مضمون الأمر تقليل لكل المعجزات التي ساقها إليهم.

ومن أفعال الأمر أسلوب تحدي الإتيان بالعذاب وتعجيله بل إن عددا من الأقوام اشتركوا في تعجيل العذاب، مما يوحي بوحدة خطاب المعاندين لوحدة تكوين النفس البشرية التي سيطر عليها الكبر والعناد؛ فقوم نوح: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿الأعراف:٧٠﴾ ﴿هود:٣٢﴾، وقوم صالح/ثمود: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿الأعراف: ٧٧﴾، وقوم هود/عاد :

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿الأحقاف: ٢٢﴾

ويتجدد خطاب العناد والإقناع بصرف من آمن عن الإيمان؛ زعما منهم في حمل الخطايا عنه إن وجدت؛ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿العنكبوت: ١٢﴾، ﴿اتبعوا سبيلنا﴾ أسلوب الأمر التوجيهي للأتباع بضرورة السير على خطاهم في الكفر بالرسول مع وعد دون مواثيق، ويوم القيامة تكون الحسرة والندم من الأتباع الذين غرهم الوعد لأنهم فاسدون، ويأتي الأمر كفعل إنجازي يحمل غرض الحسرة على ما فات من اتباع الكاذبين: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ ﴿فصلت: ٢٩﴾

٤- طرائق مراوغة المكذبين بالاستفهام

كثر أسلوب الاستفهام في خطاب المعاندين، وقد حمل أغراضا ودلالات حسب نوع المعاند وأسلوبه واختيار أداة الاستفهام وطريقة تعبيره بها وغرضها وقيمتها وقصد المعاند من استخدامها؛ فمن هذه الأغراض الكبر والاستعلاء؛ كحديث فرعون مع موسى عليه السلام بعد دعوته إلى ترك الكبر وادعاء الألوهية، وعبادة الله الواحد؛ فاستكبر فرعون وأعلن تجاهله لوجود إله للكون؛ قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿الشعراء: ٢٣﴾، استفسار عن ماهية من أرسله مستخدما ﴿ما﴾ لتعيين المسئول عنه، ويقود استعمال أسلوب الاستفهام إلى التجاهل لما في هذه الأداة من السؤال عن الأجناس.

إذا كان الكبر ظاهرا في الاستفهام السابق متوجها به إلى حقيقة الإله عز وجل؛ فإن الاستفهام في هذه الآية من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ ﴿الأعراف: ١٢٧﴾ كان دليلا على الكبر والاستعلاء من جهة قوم

فرعون نحو الرسول موسى وقومه؛ تحريضا على الإضرار بالرسول وقومه، وقدموا له دلائل على إنكاره لما يعتقد فرعون من خلال ذكر الإفساد عامة والإفساد خاصة بترك عبادة فرعون ومعتقداته، وكان لفرعون قول يشبه هذا القول: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ﴾ ﴿غافر:٢٦﴾

استعمل المعاندون الاستفهام كوسيلة إنكارية حيث ينكرون على رسلهم صالح وشعيب عليهما السلام فعلهم؛ وقد اختلف الاستفهام في الحالين في طريقة التعبير به إلا أنه لم يختلف في جوهره؛ فقوم صالح: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ ﴿هود: ٦٢﴾، ينكرون على صالح عليه السلام دعوته التي تصدهم عن ميراث آبائهم، ويردفون الإنكار بشكهم المريب في هذه الدعوة، والعلاقة بين شكهم وإنكارهم تلازم لتقديس هذا الميراث الذي يحظ لهم مكتسباتهم وسلطانهم على غيرهم، وقوم شعيب: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ ﴿هود: ٨٧﴾ وقوم شعيب ينكرون على نبيهم دعوتهم إلى نبذ ميراث الآباء وحسن التصرف في الأموال، فأتوا بالاستفهام دليلا على فساد قول الرسول وما فيه من عجب يمنعهم عن عاداتهم التي اعتادوها، ويحمل الاستفهام سخرية واستهزاء بالنبي في وصفه بالحلم والرشد "ووصفه بهما وصفا مؤكدا بالجملة الاسمية و (إنَّ) و (اللام) في تعليل إنكارهم لما أمرهم به وما نهاهم عنه، كلاهما صريح في الاستهزاء به، والتعريض بما يعتقدون من اتصافه بضدهما، وهو الجهالة والسفه في الرأي، والغواية في الفعل"[1]، واتفق الاستفهام في

[1] تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١٩٩٠ م، ١١٩/١٢.

إنكار قوله استنادا على جعل عبادة آبائهم للأصنام هو من قبيل الصواب المطلق، لا يمكن مخالفته.

وزاوج في آية قوم صالح بين الاستفهام والخبر؛ فلما أنكروا دعوته لمخالفتها الآباء أكدوا هذه المخالفة بالإخبار عن شكهم في قوله تأكيدا للإنكار الأول، وفي حديث قوم شعيب عليه السلام يحمل أسلوب الاستفهام إلى جانب الإنكار السخرية والاستهزاء بالرسول، وذكر الصلاة دليل على كثرة صلاته ووجهوا الجدل نحو قضيتين لإبطال دعواه؛ الأولى: ترك ميراث الآباء ومخالفتهم باتباع معتقد جديد، والثاني: إنكار دعوته إلى القسط في البيع والشراء والكيل والميزان وهو من الأموال، ونسبوا الأموال إلى أنفسهم؛ ليتم بذلك الجدال والإقناع تضليلا فلا سلطان له في ترك معتقدات آبائهم أو التصرف في أموالهم.

من أساليب المعاندين تحقير الرسل والتقليل من شأنهم؛ فقد قالوا: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿الأنبياء:٣٦﴾ استعمل المعاندون الاستفهام هنا في "في التعجيب، واسم الإشارة مستعمل في التحقير، بقرينة الاستهزاء"[1]، ويكون أسلوبهم فعلا كلاميا لوجود الفعل (رأى) في موضع هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا} إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ﴿الفرقان: ٤١-٤٢﴾

والآية الأولى مجملة تركيز السخرية على ذكره الآلهة بسوء، والثانية سخرية لكونه ادعى الرسالة، وذكروا صفات الرسول التي ينكرونها فيه وهي صرفهم عن الآلهة؛ لذلك قالوا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ} أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي

[1] التحرير والتنوير ٦٦/١٧.

الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ ﴿سبأ: ٧-٨﴾، وقد بلغ من سخريتهم قولهم لبعض على طريقة الاستفهام بهل، وذكروا أمرا منكرا في ظنهم وهو حديث النبي عن البعث، ولفظ رجل يعنى تجاهله مع شهرته فيهم بصفاته، ومن بعد السخرية بذكر لفظ الرجل تنكيرا، نقلوا عنه قوله متصرفين فيه ﴿إنكم لفي خلق جديد﴾ والمراد مبعوثون، ولكنهم لما أرادوا زيادة السخرية وإقناع مستمعهم زادوا في التركيب بما يرغب السامع ويرهبه، ثم أنكروا ما جاء به فوسموه بافتراء الكذب تعمدا أو بالجنون دون تعمد منه لكن لعلة فيه.

وقد وصف الرسل بلفظ الرجل أو في مقابل الملائكة؛ لأن العناد متوجه إلى طبيعتهم البشرية، كيف يكون البشر رسولا حقدا وحسدا منهم؛ لقول قوم نوح: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ ﴿المؤمنون:٢٤-٢٥﴾، وقد جاء لفظ الرجل متبوعا بكثير من الذم في خطابهم؛ فيقولون: رجل به جنة، رجل افترى على الله، ويمكن لهم أن يقبلوا رجلا عظيما؛ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ﴿الزخرف:٣١﴾، وتصدر لفظ العجب آيات الأعراف ٦٣، ٦٩، ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ﴾، ويونس الآية ٢ ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾؛ فالإنكار والاستهزاء أساس قضية بشرية الرسل في خطاب المعاندين؛ قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ ﴿التغابن:٦﴾

وللاستفهام أسلوب عجيب في التعبير عما في النفس من رفض، فعلى الرغم من عدم انتظار إجابة من السامع إلا أن دور الاستفهام يغزو سمع المتلقي ويجعله يعد

جوابا غير مطلوب هل يقبل من المتكلم كلامه أم يرده إليه أم يعمل فكره فيه، وبه يشد المتكلم على يد نفسه في محاولة لطمأنتها وصواب ما زعمت.

ومن بين صور خطاب المعاندين توالي الاستفهامات، وتوجهها إلى زعزعة كثير من القضايا في نفوس المترددين وإقناع كثير ممن خلت أذهانهم عن قبول الفكرة أو إنكارها، وللاستفهام كما للخبر من أضرب لما له من سلطان على المتلقي؛ وقد سلط المعاندون نقدهم إلى وحدة الآلهة في إله واحد بعد رفضهم بشرية الرسل وكأنها نقص فيهم؛ فتساءلوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ} مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ} أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ ﴿ص:٥-٨﴾، وقد لحق الاستفهام رفضهم وحدة الإله ورفضهم نزول الرسالة على شخص الرسول دونهم.

و تصدير الخطاب بالاستفهام الساخر سمة رد المعاندين من أقوام الرسل هود وإبراهيم وموسى عليهم السلام وبخاصة مع تكرار جملة ﴿جئتنا﴾ بعد همزة الاستفهام انكارا عليه ما يقول، وتكرر تركيب ﴿أجئتنا﴾ منهم خمس مرات: مرتين من قوم هود بأسلوب اختلف شكلا واتفق مضمونا، واتجه خطابهم إلى إنكار دعوته آلهة أخرى غير ما كان يعبد آباؤهم وصرفهم عن آلهتهم، وختم خطابهم بالتحدي؛ قال تعالى عنهم: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿الأعراف:٧٠﴾، وقالوا في الموضع الآخر: ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿الأحقاف:٢٢﴾

وورد التركيب مرتين مع موسى عليه السلام وفرعون وقومه: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿يونس:٧٨﴾، وهذه أعذار إبليس منذ بدء الخليقة رفض الإذعاء للتكريم أو الخيرية ظلت مكرورة تلوكها ألسنة المعارضين للحق، وقال فرعون لموسى:﴿قَالَ أَجِئْتَنَا

لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴾ ﴿طه: ٥٧﴾، وورد التركيب في كلام قوم إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ ﴿الأنبياء:٥٥﴾

كما ورد في النص القرآني تكرار إنكار المعاندين للبعث بعد أن صاروا عظاما ورفاتا وترابا، وساد الاستفهام مع هذا الإنكار بل تكرر الاستفهام نفسه مرتين تأكيدا لاستحالة حدوثه؛ ففي سورة الإسراء يعرض موقفهم في رفضهم حدوث الإعادة في أول السورة؛ قال تعالى:﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ﴿الإسراء:٤٩﴾ فذكر مقالتهم في الدنيا، ولما انتقل إلى الآخرة في آخر السورة وعرض للقيامة والحشر ذكر تكذيبهم؛ فقال: ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ﴿الإسراء: ٩٨﴾ كأنهم حوسبوا على مقالتهم، فقد أوردتهم النار، وتكررت الآية مرة ثانية مع اختلاف المقام تأكيدا؛ لأنهم ظلوا على الكفر إلى قيام الساعة ولم يلتفتوا إلى الآيات والبينات؛ ومثله في الواقعة: ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾﴿الواقعة: ٤٧- ٤٨﴾

وفي آية المؤمنون بين وحدة خطاب المعاندين جميعا في إنكار البعث بهذه الصيغة من الاستفهام الإنكاري من كل الأمم السابقة واللاحقة؛ قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ} قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ} لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿المؤمنون: ٨١-٨٣﴾، وفي سورة النازعات عكس الاستفهام فقدم إنكار البعث على كونهم عظاما لا تصلح للعودة؛ قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ} أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً} قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ ﴿النازعات:١٠-١٢﴾

وفي أوجز آية في هذا الصدد يقول المعاندون في سورة النمل؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ ﴿النمل:٦٧﴾ فذكروا التراب وهو

آخر أطوار تحلل الجسد وعطفوا آباءهم على الحدث ثم أنكروا الإخراج بعد هذا كله، ثم أعقبوا باستفهام آخر؛ قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿النمل:٧١﴾، وهم بخطابهم هذا يقصدون لونين من المتلقين: الأول: من يستمع إليهم وهم يعلمون صدق النبي فيكثفون له الاستفهام الإنكاري لإقناعه باستحالة هذه القضية، والثاني: أن بعض المعاندين يرى استحالة حدوث هذا البعث في نفسه فيثبِّت نفسه بالاستفهام تقوية لما يراه من استحالة الإعادة مرة أخرى.

وجاء الاستفهام يحمل قصد التمني في خطابهم يوم القيامة،"فإذا جاء الخشوع، في البيان القرآني من المجرمين والكفار، فذلك إنما يكون منهم في اليوم الآخر الذي كانوا يوعَدون"[1] وكل خطاباتهم في هذا اليوم تذلل وخضوع وخشوع لرؤية العذاب؛ وكثر ورود الاستفهام بـــ(هل) في مواضع تساؤل الخروج من النار؛ قال تعالى:﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾﴿غافر:١١﴾، وفي تساؤل الرجوع إلى الدنيا لعمل الصالحات؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ ﴿الشورى:٤٤﴾، و(هل) جاءت هنا للسؤال عن غير الممكن بأسلوب الممكن، "وهذه المقالة تدل على سوء ما أطلعوا عليه، والمراد موضوع الرد إلى الدنيا، والمعنى الذي قصدوه أن يكون رد فيكون منهم استدراك للعمل والإيمان"[2]، والسؤال عن المرد إن كان ممكنا ويتبعه استدراك لعمل الخير بعد اليقين من سوء العقاب.

ويمضي استعمال الاستفهام كفعل كلامي يرمي من ورائه المتكلم تغيير مقامه بكل طريق، فيتمنى المعاند لو أن له شفعاء يشفعون له كما في الدنيا، قال تعالى:

---

[1] الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، عائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ، دار المعارف، القاهرة،ط٣، ص٢٢٨.

[2] المحرر الوجيز ٤١/٥.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿الأعراف:٥٣﴾، يكشف الاستفهام عن تمني الشفاعة؛ وبحسب هوسرل هناك "علاقة بين الوعي و أفعال الوعي وموضوعات الوجود الخارجي"[١] فبعد أن فقدوا قدراتهم على التذلل والخضوع ودعواتهم المتكرره للملائكة من خازني النار برفع العذاب عنهم ومطالبهم بالعودة إلى الدنيا لعمل الصالحات، بحثوا عن شفعاء لهم ولكن لا شفيع ولا مرد.

٥- <u>تداولية أسلوب النداء</u>

يبادر المعاندون باستعمال لفظة ﴿ربنا﴾ في أسلوب النداء في خطابهم يوم القيامة، وقد حذفت منه الأداة تلطفا ومسكنة وتضرعا ولجوءا إلى الله أن يكشف عنهم ما هم فيه، وورد النداء في مقام التحول الأخروي مغايرا لحواراتهم الدنيوية التي بدا فيها التكبر والقسوة والعناد، لتظهر المفارقة بين حالين وجنوحهم إلى الأسلوب الجديد ظنا منهم بنجاعته في محاولة الفرار من العذاب، وصورة المفارقة بين الموقفين يكشفها الحوار بين فريقين من أنفسهم: فريق المستكبرين وآخر من المستضعفين، قال تعالى حكاية عنهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿النحل: ٨٦﴾، ويقولون:﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿القصص: ٦٣﴾، ويقولون أيضا:﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾ ﴿الأعراف: ٣٨﴾ في محاولة إلقاء اللوم على معاندين آخرين من الشركاء الذين أضلوهم سواء من الإنس أو الجن؛ يقولون هذا إسقاطا للتهمة عنهم وإلصاقها بآخرين.

١ القصدية من فلسفة العقل إلى فلسفة اللغة، مجلة كلية الآ داب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، ع ٦، عام ٢٠١٠، ص١٠.

ومنه:﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ ﴿فصلت:٢٩﴾، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ ﴿الأحزاب: ٦٨-٦٧﴾ ولكن هذه المحاولات لم تفلح في إلقاء اللوم على القرين جنا كان أو إنسا؛ لذا قال القرين الخائف من عذاب الله مؤكدا فساد متبعه وطاعته له رغبة لا رهبة: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿ق:٢٧﴾

ويكثر أسلوب النداء بصيغة ﴿ربنا﴾ مع حذف أداة النداء لعلمهم الآن بما قالت لهم الرسل إذ تحقق العذاب الذي يعني قرب الله تعالى الذي أرسل الرسل إليهم، وفي موقف القيامة يريد المعاند اختصار الكلام ليصل إلى مراده فلا وقت لطول التركيب ولا وقت لانشغال التركيب بزيادات فهم يستعطفون ويرجون، ولأسلوبهم مقصد إبراز إيمانهم بما كانوا قد نبذوه من قبل وكثيرا ما يأتي الأمر للالتماس بعد النداء؛ أخرنا، أخرجنا، أرجعنا، اعترفنا...

ومقولاتهم:﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ ﴿إبراهيم:٤٤﴾، ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ ﴿المؤمنون:١٠٧﴾، ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ﴿السجدة:١٢﴾، ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ ﴿فاطر:٣٧﴾، ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ ﴿غافر: ١١﴾، كل هذا التوسل والخضوع وهم من قالوا استهزاء: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ ﴿ص: ١٦﴾، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾﴿الحج: ٤٧، والعنكبوت:٥٣﴾

ولهم نداء حقيقي من نوع خاص في الدنيا لرسولهم الذي يدعوهم بالبينات والآيات؛ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ ﴿الحجر: ٦﴾، وقد استعملوا تركيب النداء ﴿يا أيها الذي﴾ رغم قرب الرسول منهم، وهو أسلوب لنداء

البعيد؛ يقول الزمخشري:"فإذا نودي به القريب المفاطن فذلك للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معنىّ به جداً... فان قلت : لم كثر في كتاب اللَّه النداء على هذه الطريقة ما لم يكثر في غيره؟ قلت : لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة"[1]، وليس أهم عند المعاندين من وصف الرسول بالجنون على طريقة الإخبار المؤكد تعبيرا عما يجيش في صدورهم من غل للدعوة والداع، ومثله قول فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿القصص: ٣٨﴾، فأتى بأسلوب النداء طويلا تأكيد للنداء نفسه وذلك لعظم الأمر، ويردف النداء بأسلوب القصر مخصصا الألوهية لنفسه دون سواه لا يشاركه فيها أحد، فطول النداء كان للفت الانتباه إلى القضية الكبرى وهي الألوهية.

٦- **المزاوجة بين النداء والتمني مع التحول الأخروي**

خصيصة أخرى في مقصدية خطاب المعاندين وقد اتصل فيها النداء المجازي بالتمني؛ فلطول الحسرة سبقت (يا) النداء (ليت)، والفعل الكلامي في هذا الأسلوب يبغي من ورائه المعاند تبكيت نفسه على فعله هذا، والقرآن الكريم في نقله لهذه المشاهد الحية، يحث متدبر القرآن على الاعتبار، فإذا صدقت كل القضايا بالبراهين والأدلة فسوف يكون حال المعاند واضحا للعيان من لوم نفسه يوم القيامة.

وجاء تركيب ﴿يا ويلنا﴾ خمس مرات، ثلاثة منها ينعتون أنفسهم بالظلم، ومرة في تعبيرهم عن مفاجأتهم بالبعث وصدق الرسل؛ قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿يس:٥٢﴾، ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿الأنبياء: ٩٧﴾، ويقوم نداؤهم على الويل عند قيام الساعة وصدق ما

١ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١٤٠٧ هـ، ١/٨٩-٩٠.

كانوا قد كذبوا به من قبل؛ والويل أول درجات حسرتهم، ومرة ينادون الحسرة، قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ ﴿الأنعام:٣١﴾ ويلي الويل الحسرة على ما فرطوا، ونداؤهم الحسرة في الدرجة التالية من الندم.

أما تركيب التمني﴿يا ليتنا﴾، فيأتي في الدرجة العليا وقد عاينوا العذاب، وكل محاولاتهم ما بين جلد الذات وبين الطمع في العودة لعمل الصالحات؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿الأنعام: ٢٧﴾، وقل تعالى:﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ ﴿الأحزاب:٦٦﴾.

وقد زاوج بين النداء وبين منادى غير عاقل ﴿ياليتنا- ياويلنا- يا حسرتنا﴾ وكلها تستدعي التمني، والحسرة، والويل؛ فيعبرون باختيارهم هذه التراكيب عن قسوة ما هم فيه من الندم، لما رأوا بأس الله وسطوته، وخطاب المعاندين هنا متوجه إلى أنفسهم زيادة في التعبير عن شعورهم بالألم عبروا عنه بطول ندائهم، واختيار المنادى عليه يشير إلى ضعف حالهم وعجزهم بعد ادعاء القوة والغلبة.

ويصحب اللوم التبرؤ من الأخلاء؛ قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾﴿الزخرف:٣٨﴾، وقد يتمنى الكافر أن يكون ترابا دون حساب ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ ﴿النبأ:٤٠﴾، ومثله قول المعاند وقد رأى كتاب أعماله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ} وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ} يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ ﴿الحاقة:٢٥-٢٧﴾، ويقول أيضا وقد أدرك أن الحياة هي الآخرة لا ما أجهد نفسه فيها فضل وأضل: ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ (الفجر:٢٤﴾، ولم يظهر هذا التركيب في الدنيا إلا في حال تمني الحصول على

المال مع قوم قارون: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ﴿القصص:٧٩﴾.

وجل نداءات المعاندين توسطت بين النداء الحقيقي و المجازي، وبرز دور النداء في تحقيق مقاصد المتكلم لفت الانتباه بما يناسب أحوال المخاطب وظهر ذلك من أغراض النداء التى حملت التحقير للرسل والرسالات ثم الإلتماس والتذلل والخضوع مع خطاب المولى سبحانه وأخيرا خطاب الحسرة عند المزاوجة بين النداء والتمني في الآخرة أو في أمر مطموع فيه في الدنيا.

٧- **سلطة النفي في خطاب المعاندين**

النفي هو رفض وإنكار لقضية من القضايا وهو سلطة يستعملها المعاند الذي يأتي به لنفي الخبر المتمكن في ذهن المتلقي أو الذي يخشى تمكنه، وقد وصفه ابن يعيش بالإكذاب قائلا: "اعلم أن النفي إنما يكون على حسب الإيجاب؛ لأنه إكذابٌ له، فينبغي أن يكون على وَفق لفظه لا فرقَ بينهما، إلَّا أن أحدهما نفيٌ، والآخر إيجابٌ"[١]، وله دور في توجيه المتلقي إلى التسليم بما يقال لقصده إلى النتيجة، وتتصدر أداته التركيب لقلبه ويعقبه قلب في اعتقاد المتلقي الذي كان يرى القضية خلاف ذلك، فهو تحول كامل من الإيجاب إلى النفي مع الاحتفاظ بالتركيب المستقر في نفس المستمع فيكون له تأثيره الكامل، وتحمل كثير من صوره التجهيل للمخاطب؛ ولكن خلاف المعاندين كان لهدف الكفر لا لإثبات الحق بسلطة النفي؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ ﴿الإسراء:٨٩﴾ فأتى الرفض مع ظهور البينات.

وقد هيمنت أداة النفي (لن) على مقاصد المعاندين في التحدي والتعجيز للرسل، كما يحمل أسلوبهم جحودا ورفضا للدعوة والإرشاد، وكثيرا ما يتصل هذا بنفي

١ شرح المفصل للزمخشري، موفق الدين أبو البقاء بن يعيش الموصلي، تحقيق: د. إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠١ م، ٣١/٥.

الإيمان حتى تتحقق لهم معجزة؛ والنفي كما يقول ابن فارس: "النون والفاء والحرف المعتل أصل يدل على تعرية شيء من شيء وإبعاده منه"[1]، و"نفى الشيء نفيا جحده"[2]؛ فيقولون: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ ﴿البقرة: ٥٥﴾، ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾﴿ الأنعام: ١٢٤﴾.

ونفى كفار العرب الإيمان إلا أن تتحقق لهم جملة معجزات؛ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا} أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا} أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا} أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ ﴿الإسراء: ٩٠-٩٣﴾، لن يحدث منهم إيمان إلا أن يفجر الأرض ينبوعا، أو تكون له جنة، أو ينزل عليهم العذاب، أو يكون له بيت مزخرف، أو يصعد في السماء كل هذا حتى يحدث منهم إيمان ولن يحدث إلا أن يجمع بين الصعود وإنزال كتاب مكتوب يقرأونه.

وقد كان المعاندون أشد عداوة في الكشف عن رفضهم للرسالة والرسول فلم يحتاطوا باستخدام أسلوب مراوغ في النفي كـــ"نفي الشيء مقيدا والمراد نفيه مطلقا، وهذا من أساليب العرب؛ يقصدون به المبالغة في النفي وتأكيده؛ كقولهم: فلان لا يرجى خيره، وليس المراد أن فيه خيرا لا يرجى، غرضهم أنه لا خير فيه على وجه من الوجوه"٣ لأن تأكيد النفي بإيمانهم بالقرآن معبر عن عداوة ظاهرة، ويكشف هذا عن قوة خفية في تماسك السادة المترفين لاتفاق مصالحهم؛ قال تعالى:﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ﴿سبأ:٣١﴾.

١ مقاييس اللغة، لابن فارس (مادة:نفى).
٢ تاج العروس، للزبيدي (مادة نفى).
٣ البرهان للزركشي، ٣٩٦/٣.

فقد رفضوا الإيمان مع التأبيد على ذلك بل ورفض كل ما جاء من عند الله تعالى وهو منتهى خطاب النفي فلا اعتراف به أو بغيره وفي قولهم جحود ونفي للدلائل على صدقه وتركها بالإعراض؛"وقال الذين كفروا بإصرار وعناد وجحود لكل ما هو حق: قالوا لن نؤمن بهذا القرآن الذي جئت به يا محمد –صلّى الله عليه وسلّم– من عند ربك، ولا نؤمن– أيضا– بالكتب السماوية الأخرى التي تؤيد أنك رسول من عند الله– تعالى– فالآية الكريمة تحكى ما جبل عليه هؤلاء الكافرون من تصميم على الباطل، ومن نبذ للحق مهما تعددت مصادره"[1]، فالرفض متوجه إلى القرآن وما يحذو حذوه من كتب السابقين الدالة على نبوته صلى الله عليه وسلم إذ العداء لكل حق؛ ولذا يقول ابن المنير في حاشيته على الكشاف:"فهذا الاقتراح والتعنت يكفيهم ظلما، ألا ترى أن الذين قالوا لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتابا من السماء، أو حتى تفجر الأرض، أو يكون لك بيت من زخرف، كيف هم من أظلم الظلمة؟ وإن كانوا إنما طلبوا أمورا جائزة، ولكنهم اقترحوا في الآيات على اللَّه، وحقهم أن يسندوا إيمانهم إلى أى معجز اختاره اللَّه – دل ذلك دلالة يلجأ على أن ظلمهم مسبب عن اقتراحهم، لا عن كون المقترح ممتنعا عقلا"[2]، فما قدموا من اقتراحات بشأن الإقناع يشهد على إرادتهم الحرة الواعية المدركة لصدق الرسالات، وهي شاهد عيان على ضلال نابع عن اختيار منهم.

وخطاب النفي كان من كل صنوف المعاندين إلا أنه كان أشد قسوة من جانب اليهود وبني إسرائيل عامة وهم أهل كتاب ولهم سابقة بمعرفة الرسل والرسالات إلا أنهم أثبتوا العذاب لأنفسهم كبرا ولم يدفعوه بالإيمان والتصديق بل أثبتوه:﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ ﴿البقرة:٨٠﴾، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا

١ التفسير الوسيط للقرآن الكريم، د.محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٩٣/١١.

٢ حاشية الإمام العلامة أحمد بن محمد، المعروف بابن المنير على الكشاف للزمخشري ٥٨٤/١.

أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ ﴿آل عمران:٢٤﴾، وهذا التباين بين كثرة أيام العذاب في الإفراد وقلته في الجمع أرجعه د.فاضل السامرائي إلى سياق الآيات؛ ففي سورة البقرة لمّا ذُكّروا بما فعلوه من آثام، قالوا: معدودة؛ فهم يحرّفون الكلم بعدما عقلوه وهناك أمور عديدة يعرفون بها ويذكرونها؛ فجاء ردّهم ﴿أياماً معدودة﴾ لكثرة ذنوبهم، أما في سورة آل عمران لم يكن هناك تذكير بالأفعال والتوعّد بالحساب فلما ذُكّروا بها قالوا أياماً معدودات؛ لأن الآثام التي ذُكروا بها أقلّ[١]، وهذا التباين بين النفي في الأولى والنفي في الثانية ناتج عن اضطراب أحوالهم وحكمهم على فعلهم مرة بالتهوين ومرة بالتعظيم، وكما نفى الفريقان دخول الجنة عن جميع الأمم وقصره كل فريق منهم على نفسه ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ ﴿البقرة:١١١﴾

ولما أنقذهم موسى –عليه السلام– من بطش فرعون لم يكن منهم إلا أن تقاعسوا عن نصرته في دخول المدينة المقدسة رغم كل الآيات ومحاولات إقناعهم بالدخول، وقد كانت نجاتهم من فرعون أشد هولا من هذا الأمر؛ قال تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿المائدة:٢٣﴾ وسبق هذا القول قولهم أولا: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ ﴿المائدة:٢٢﴾، تكرار جملة النفي مرة بالنفي الواضح الجلي ومرة بالنفي الخفي على طريقة الشرط، وبعد محاولات إقناعهم: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ﴿المائدة: ٢٤﴾، ثم استمسكوا بعبادة العجل رغم كل هذه المعجزات المتتاليات؛ وعبروا بأسلوب النفي الذي ينبئ عن ضلال راسخ في القلوب والعقول؛ ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ

١ انظر/ على طريق التفسير البياني، د. فاضل السامرائي، النشر العلمي لجامعة الشارقة، الإمارات، سنة ٢٠٠٢م، ص١٨.

عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ ﴿طه:٩١﴾، كما أنكر المعاندون البعث مستعملين أسلوب نفي الحدوث؛ قال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ﴿التغابن:٧﴾

النفي بإنما وهي أداة من أدوات القصر على طريقة النفي والإيجاب وهي "تفيد في الكلام بعدها إيجاب الفعل لشيء ونفيه عن غيره ... ولها مزية وهي أنك تعقل معها إيجاب الفعل لشيء ونفيه عن غيره دفعة واحدة وفي حال واحدة"[١]، وهي أداة المعاندين التي عكسوا بها كثير من القضايا؛ قال تعالى عنهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ ﴿البقرة: ٢٧٥﴾، فأرادوا باستعمالها عكس ما يدعون إليه من نفي الاختلاف بين البيع والربا بل جعلوا الربا هو الأصل والبيع يشبهه؛ وفي تركيبهم هذا تجاهل لكلام الرسل، والإصرار على ما تعارفوا عليه، والموازنة ليست بين مباحين أيهما أصوب وأقل ضررا بل بين محرم ومُحَل.

وقال قوم صالح وشعيب لرسلهم: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ ﴿الشعراء:١٥٣﴾﴿الشعراء: ١٨٥﴾ فأوجبوا لهم السحر ونفوا عنهم الإصلاح والدعوة إلى الله، ومن خصائصها حصر ما بعدها في الصدق وما دونه كذبا عندهم، وهي "تجيء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته"[٢] فكأن قولهم هذا للرسل مما لا ينكره الرسل، كأن تقول للساحر يا ساحر وهو يعرف سمته، فقلب الحقيقة بمثل هذه الأساليب كثير في دنيا الناس، وكأنهم يعرفون أكثر مما يعرفه المخاطب عن نفسه، وكان دليلهم ما ذكر في بقية كلامهم بوصفه بالبشرية وقصرها عليه فما جاء به من معجزات لا يعدو أن يكون بشرا ساحرا؛ ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ ﴿الشعراء:١٥٤﴾﴿الشعراء: ١٨٦﴾، ولذلك فإن لأدوات النفي والقصر قدرة سجالية يتكئ دائما عليها من أراد الجدال والمناظرة.

١ دلائل الإعجاز، ص٢٥٧.
٢ السابق ص٣٣٠.

٨- **بناء الجملة بين القصَر والحذف ودلالتها النفسية**

ينتظر الحذف حيث المقام ومقام الحساب أشد أنواع مقامات اضطراب المعاندين وفيه حذف وتقليل للعبارة لما هم فيه من هول العذاب فلا طاقة لديهم إلى بسط الكلام والتفسير؛ ومن صور الإيجاز في العبارة عندهم بقصرها؛ قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾﴿الأعراف: ٤٤﴾ حذف وإيجاز لا طاقة لهم على الكلام بل كفت لفظة واحدة ليفهم السامع ما هم فيه؛ ولما كان السؤال جامعا جاءت الإجابة جامعة موجزة؛ وسبب قولهم: نعم دون تطويل أو بسط؛ لأن "هذا إقرار منهم بالواقع الذي عاشوه واقعاً بعد أن كان وعيداً، وهم لم يكابروا؛ لأن المكابرة إنما تحدث بين الخصمين في غير مشهد وهم في الدنيا، قبل أن يوجد المشهد كانوا يكذبون البلاغ عن الله، وصارت الدار الآخرة واقعاً، وتحقق وجودهم في النار"[١]، كما يحذف المعاندون جواب لولا زيادة في بيان صبرهم على آلهتهم المزعومة وتأكيد على إرادة الرسول إضلالهم؛ قال تعالى عنهم: ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ﴿الفرقان:٤٢﴾، انظر كيف تكرر ضمير المتكلم مع الإضلال والآلهة والصبر، فهم يتفاخرون بثبوتهم على الكفر بعد ظهور العلامات التي استمالت قلوبهم وعقولهم بوضوحها وحكمتها، ولكنهم استمسكوا بكفرهم لما رأوا ذهاب سلطانهم ومجدهم وسيادتهم على المستضعفين من أقوامهم، وجاء جواب لولا محذوفا دل عليه ماسبقه "وهو إن كاد ليضلنا، وفائدة نسج الكلام على هذا المنوال دون أن يؤتى بأداة الشرط ابتداء متلوة بجوابها قصد العناية بالخبر ابتداء بأنه حاصل ثم يؤتى بالشرط بعده تقييدا لإطلاق الخبر؛ فالصناعة النحوية تعتبر المقدم دليل الجواب، والجواب محذوفا لأن نظر

[١] تفسير الشعراوي ٧/ ٤١٤٨.

النحوي لإقامة أصل التركيب، فأما أهل البلاغة فيعتبرون ذلك للاهتمام وتقييد الخبر بعد إطلاقه"[1]، وتقديم جملة الجواب لإفادتها أن الضلال الذي زعموه وهو الإقناع تقدم على صبرهم، وهو مكمن العز والفخار في خطابهم.

ثانيا: آليات توظيف الصيغ والأدوات في خطاب التكذيب

١- الخداع بالقسم واليمين

ينبغي الوقوف على ظروف القسم وسياقه وأمور ذكرها ابن خالويه لتدبر أسلوب القسم عند المعاندين؛ يقول: "واعلم أن القسم يحتاج إلى سبعة أشياء: أحرف القَسَم، والمقسِم، والمقسَم به، والمقسَم عليه، والمقسَم عنده، وزمان، ومكان"[2]، هذه الأشياء عند معرفتها قد تنبئ عن قصد المتكلم وتعين السامع على إدراك مغزاه ومقامه، والغرض من ذكره، ولأهميته افتتحت خمس عشرة سورة في القرآن بالقسم.

تنوعت سبل عرض القرآن لقَسَم المعاندين ومن هذه الصور مشهد يوم القيامة، وسؤالهم عما أنكروه في الدنيا من الرسل والرسالات؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ ﴿الأنعام:٣٠﴾، ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ ﴿الأحقاف: ٣٤﴾، موقف من مواقف الحشر حيث يرى المعاندون صدق ما أنكروه من قبل، وطرح عليهم السؤال تقريعا لإنكارهم السابق بتحقق العذاب، وقد كانت أفعالهم وخطابهم الرسل أو أقوامهم؛ تقول: ﴿ليس هذا بالحق﴾، فجاء السؤال مصدرا بالهمزة ينتظر جوابا قوليا كما أنكروه قولا حين قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ ﴿الشعراء:١٣٨،سبأ:٣٥، الصافات:٥٩﴾، ثلاثة مواضع ذكرها القرآن عنهم لنفي العذاب، فكيف وقد عاينوه وشاهدوه؛ لذا فالإجابة جاءت بالجواب الشاف الذي تبعه

١ التحرير والتنوير ٣٣/١٩

٢ إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، الحسين بن أحمد بن خالويه، مطبعة دار الكتب المصرية، سنة ١٩٤١م، ص٣٧.

القسم بما أنكروه من قبل، واختاروا لفظ ﴿الرب﴾ طمعا في رحمتة بهم؛ فكان ردهم"إقرارا مؤكدا باليمين لانجلاء الأمر غاية الجلاء"[1]، وفي موقف آخر من مواقف القيامة يدعى المشركون لكشف اللثام عن شركائهم؛ قال تعالى:﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ} ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ﴿الأنعام: ٢٢- ٢٣﴾ حرص المعاندون على أن ينكروا حدوث هذا منهم في الدنيا رغم علمهم بعدم جدوى هذا الإنكار لحيرتهم ودهشتهم وما أحدثه السؤال من مفاجأة، مع ذكر لفظ الجلالة ﴿الله﴾ لاستحضار المهابة والعدول عنه إلى لفظ الربوبية التفاتا معجميا جمع بين المهابة والرجاء؛ فصفات الرب العناية "فلم يقنعوا بمجرد الكذب حتى أقسموا، ولا بمجرد القسم حتى ذكروا الاسم الجامع والوصف المحسن، وقولهم:﴿ما كنا مشركين﴾؛ أي أن تكذيبهم لك أوصلهم إلى حد يكذبون فيه في ذلك اليوم بعد كشف الغطاء تطمعاً بما لا ينفعهم، كما ترى الحائر المدهوش في الدنيا يفعل مثل ذلك"[2]؛ ولأنهم من فرط احترافهم الكذب في الدنيا يستمرون فيه غير مسيطرين على أقوالهم وقد اعتادوه ليؤكدوا ذلك على أنفسهم؛ لذا قال: ﴿انظر كيف كذبوا على أنفسهم﴾.

وظهر لفظ القسم كثيرا في اختيارات المعاندين عند تأكيد قضية من القضايا مبالغة في إظهار الجد فيها، لإقناع السامع مع اختلاف أحواله بين خلو الذهن والتردد والإنكار، ومن صور القسم في خطابهم، ورود ألفاظ القسم؛ نحو: ﴿قاسمه﴾: أقسم له؛ قال تعالى:﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ ﴿الأعراف:٢١﴾، و﴿اقتسم﴾: نقول اقتسموا؛ أي: تحالفوا؛ قال تعالى: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ ﴿الحجر:٩٠﴾، وهم الذين تقاسموا وتحالفوا على إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم

١ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين البيضاوي، دار الفكر، بيروت، عام ١٩٩٦م، ٤٠٣/٢.

٢ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، أبو بكر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٩٨٤م.

ووصفوا القرآن بأنه عضين فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه وتلك طريقة منهم في تفتيت الجزء وصولا إلى إنكار الكل، و﴿تقاسم﴾: تقاسموا؛ أي: تحالفوا، قال تعالى:﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ ﴿النمل:٤٩﴾، تحالفوا على إنجاز موعودهم، كما ورد فعل ﴿أقسموا﴾ مكررا ثلاث مرات في الذكر الحكيم.

وجاءت أقسامهم ضربت من المناورة مع الرسل؛ فتارة يقسمون على حصول الإيمان منهم فور ظهور الآيات، وهو أمر ينزل على على حسب مراد الله وتقديره- سبحانه- لا كما يريدون، وكم من أمة كفرت بعد مجيء الآيات؛ قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ ﴿الأنعام: ١٠٩﴾، كما أقسموا قسما بينا على إنكار البعث بعد الموت، قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ ﴿النحل:٣٨﴾، فأنكروا البعث في أكثر من موضع لأن الأقوام المعاندة كلها قالت مثل قول أختها: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ ﴿الأنعام:٢٩﴾، وورد مثل هذا القول في ﴿المؤمنون:٣٧، والدخان:٣٥﴾، كما استبعد أبي بن خلف إعادة من هلك؛ ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾﴿يس:٧٨﴾، كما قالوا: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ ﴿الجاثية:٢٤﴾، ومثل هذا أقسام المنافقين الذين ادعوا امتثالهم الخروج للجهاد فأخبر الله عن نفاقهم، وقد اتخذوا من القسم وسيلة لتأكيد صدق نواياهم؛ لأنهم لم يعرفوا كشف الله تعالى الحجب لرسوله عن قلوبهم: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ ﴿النور:٥٣﴾ لذا قال في الآية ﴿قل لا تقسموا طاعة معروفة﴾.

وتغليظ أقسام المعاندين تنبئ عن كذب وتلاعب في استعماله الذي به يكون تأكيد الدعوى الصادقة زيادة في تقريرها وإقناع السامع بها؛ فأكدوا الجواب باللام مع

كذب دعواهم؛ قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ ﴿فاطر: ٤٢﴾، وقد جعل قوم شعيب من القسم أداة لصرف الراغبين عن الإيمان إلى الكفر، وجاء القسم بطريقة التحذير وتأكيد الخسارة حال اتّباعه؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾﴿الأعراف:٩٠﴾.

وقد سلكوا طريق القسم لما فيه من زعزعة اعتقاد المستمع سواء خالفهم الرأي أو تردد فيه وحمله على التفكير الجاد قبل اتخاذ رفض الادعاء أو قبوله، وهذه طريقة في الإقناع بحيث تأتي صياغة الدليل داخل أسلوب القسم؛ لزيادة وقعه وتأثيره، ويتسم القسم بالإيجاز والقِصر وتركيز العبارة لتوكيد القضية، فلم يهمله المعاندون في ادعاءاتهم الباطلة.

٢- أدوات التحضيض بين الشرط والاقتراح

يميل المعاندون إلى اختيار أدوات التحضيض (لولا ولوما بمعنى هلَّا) عند إرادتهم توجيه الرسل إلى نوع خاص من المعجزات، وهما أداتان "يتدُلان على التحضيض فتختَصَّان بالفعلية نحو: ﴿لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ﴾﴿الفرقان:٢١﴾ ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلاَئِكَةِ﴾﴿الحجر:٧﴾ ويساويهما في التحضيض والاختصاص بالأفعال؛ هَلاَّ وأَلاَ وألاَّ وقد يلي حرفَ التحضيض اسمٌ مُعَلَّق بفعلٍ؛ إما مضمرٍ؛ نحو﴿فَهَلاَّ بِكْراً تُلاَعِبُهَا وَتُلاَعِبُكَ﴾؛ أي: فَهَلاَ تَزَوَّجْتَ بِكْراً ومُظْهَرٍ مُؤَخّرٍ؛ نحو: ﴿وَلَوْلاَ إِذْ سمِعتُمُوهُ قُلْتُمْ﴾﴿النور:١٢﴾؛ أي: هَلاْ قلتم إذ سمَعْتموه"[١]، فاستعمال هاتين الأداتين لحض المخاطب على فعل معين وتوجيهه نحو هدف خاص.

١ أوضح المسالك إلى ألفية إبن مالك، أبو محمد عبدالله جمال الدين بن هشام الأنصاري، دار الجيل، بيروت، ط٥، عام ١٩٧٩م،٢٣٨/٤.

وقد استعملوا (لولا ولوما) في خطاب المعاندين لحمل رسلهم على الإذعان لرغباتهم في الإتيان بما يطلبون تبجحا وعنادا، وقد جاءت أسئلتهم في جملة من المطالب؛ تكليم الله لهم أو رؤيته، وإنزال الملك على الرسول وعليهم، أو إنزال كنز من السماء؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ ﴿البقرة:١١٨﴾، ﴿أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ ﴿هود:١٢﴾، ﴿وقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ ﴿الفرقان:٢١﴾ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ ﴿الأنعام:٨﴾ وكلمتهم هذه "مسوقة لتأكيد لجاجتهم وتماديهم في التعنت والمكابرة"[1]، كلها محض تحد وتعجيز وجدال، فما جاء من معجزات وآيات كاف لصدق الرسل، بل كل الموجودات حولهم يشهد بالوحدانية والقدرة البالغة لله رب العالمين.

وقد صفوا رسولهم بالفقر وعجبوا من كونه بشرا واقترحوا إنزال ملك ليشد أزره؛ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا} أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ ﴿الفرقان: ٧-٨﴾، وكلها أمور ليست من شأنهم فما طرح من الآيات دليل على الوحدانية ولكنهم مالوا إلى توظيف التحضيض لإظهار أنفسهم في مقام الباحث عن الحق وهم له كارهون، وقولهم: ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ وفي قولهم هذا كناية عن الفقر والفاقة والبشرية للرسول وفي عرفهم نقص، لقولهم بعده: ﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾، ففي أسلوب تحضيضهم إبطال لرسالته لكونه بشرا فقيرا متواضعا؛ وهو شبيه بقولهم:﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ﴿الزخرف:٣١﴾ وأسلوبهم هذا يعني رفضهم قبول رسالته ما لم يكن من عظماء

١ إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين درويش، دار الإرشاد للشئون الجامعية، حمص، سوريا، ط٤، عام ١٤١٥هـ، ٦٩/٣.

القوم، واستعملوا لولا لأن "هنا في معنى إبطال كونه رسولا على طريقة المجاز المرسل بعلاقة الملازمة؛ لأن التحضيض على تحصيل ما هو مقطوع بانتفاء حصوله يستلزم الجزم بانتفائه"[1]، فالنقص يلحق بالأمر الذي يحثون على إيجاده ووجوده.

كما تكرر هذا الحض على إنزال الآيات من السماء في أكثر من موضع في القرآن الكريم، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ ﴿الأنعام: ٣٧﴾ بالفعل المضعف ﴿نزّل﴾ بعد لولا، وفي ثلاثة مواضع ﴿أنزل﴾؛ قال تعالى:﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ ﴿يونس:٢٠﴾ و﴿الرعد:٧،٢٧﴾، وفي التضعيف إلحاح في الطلب وتحد وتعجيز وفي ترك التضعيف بيان بشرط الإيمان عندهم بالرسول، وفي طه؛ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ ﴿طه:١٣٣﴾، وجاءت لفظة آيات بدلا من آية في العنكبوت؛﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ ﴿العنكبوت:٥٠﴾، ولم تخل أمة من الأمم من آية تخصها وتناسب طبيعتها، ولم يكن إنزال الآيات إلا تقديرا من الله تعالى؛ قال سبحانه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿الأنعام:١٠٩﴾

بين تكرار أداة التحضيض **(لولا)** ازدواجية المعايير عند المعاندين؛ فالبون شاسع بين ما يرغبون وتميل إليه أهواؤهم وبين ما يأتيهم به الله، لقد قالوا ﴿لولا أرسلت إلينا رسولا﴾ فلما جاءهم قالوا: ﴿لولا أوتي مثل ما أوتي موسى﴾ وقد كفروا بما أوتي موسى ولم يؤمنوا به، فقد فضح أسلوب التحضيض أمرهم وأخزى مقصدهم في الجدال والعناد؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا

١ التحرير والتنوير٢٥/١٩٩.

سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ ﴿القصص:٤٨-٤٧﴾ تكررت أداة (لولا) ثلاث مرات لتحمل ثلاثة معان؛ في الأولى: الشرط، والثانية: العرض، والثالثة: التحضيض، وقد كشف أسلوبهم عن مناورة خبيثة فهم يستعملون المنادى متصلا بالضمير العائد عليهم (ربنا) ليبينوا صلتهم بخالقهم، ثم استعملوا الجناس (أرسلت- رسولا) والإرسال بديل عن البعث لكون الرسول لهم خاصة، ثم جواب (لولا) أن يمتثلوا للرسول فتكون النتيجة الاتّباع كل هذا الترتيب الحجاجي يفضي إلى الإيمان، ولكن الآية التالية كشفت زيف هذا الادعاء فما هو إلا مماطلة خادعة منهم؛ لأنهم لما جاءهم الرسول ذهبوا إلى المناورة وزادوا شرطا للإيمان به أن يأتي بما أتى به موسى -عليه السلام- وقد أعرضوا من قبل عما جاء به موسى-عليه السلام-.

ثم إنهم لما أنكروا-أي المعاندون من مشركي مكة- رسالته لكونه بشرا كما تقدم، أرادوا بيان عجز آخر ظنا منهم أن يميطوا اللثام عن نقص في دعوته فأنكروا نزول القرآن منجما؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ ﴿الفرقان:٣٢﴾

واستعملت ﴿لو ما﴾ مرة واحدة في القرآن الكريم وردت في كلامهم؛ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ} لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿الحجر: ٦-٧﴾ واستعملت الأداة ﴿لوما﴾ بدلا من ﴿لولا﴾ لأن في "معناها الحض على أن تأتي به الملائكة، وعلى أن الامتناع عن الإيمان لأنه لم تأت به الملائكة، بيد أنه يلاحظ أن ﴿لا﴾ تدل على النفي في الحال والاستقبال، و ﴿ما﴾ تدل على النفي في الماضي، وقد جمع في هذه الآية الكريمة بين ﴿ما﴾، وفعل المضارع بعدها، فدلت على أن الامتناع عن الإيمان في الماضي لعدم إتيان

الملائكة ْبه، وأنهم مستمرون على عدم الإيمان ما دامت الملائكة لم تنزل به"[1]، وهذه محض خصوصية للأداة ﴿لوما﴾.

٣- توظيف الشرط للإفلات من العقاب

شاع في أسلوب المعاندين استعمال أداتي الشرط (إن، ولو)، وكثر استعمال (لو) لما فيه من علاقة ارتباط بين جملتين يستطيع من خلالهما المتكلم التعبير عن مقاصده وأغراضه بما يمنع حدوث جواب شرطه لامتناع حدوث الشرط فامتناع النتيجة كان لعدم توافر السبب؛ وهي تأتي "للشرط في الماضي مع القطع بانتفاء؛ كانتفاء الإكرام في قولك: لو جئتني لأكرمتك، ولذلك قيل: هي لامتناع الشيء لامتناع غيره"[2]، وتوظيف الحرف له دلالته في تعلق شيء بشيء يقصد من ورائه المتكلم أن يجعل انتفاء الشرط لا دخل له فيه فقد أثر على فعله الذي كان ينويه، وهذا خطاب المجرمين حين يوقنون بإسقاط الأمر في أيديهم، فقد تكرر في القرآن بيان قصدهم إنكار الشرك لما رأوا عواقبه: قال تعالى: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ ﴿الأنعام: ١٤٨﴾، وبأسلوب آخر: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ﴿النحل:٣٥﴾، ولما كانت تأتيهم رسلهم بالبينات كانت إجاباتهم ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ ﴿فصلت:١٤﴾

استند المعاندون في حيلهم لتكذيب الرسل على طريقة سلب قدرتهم وإرادتهم مستخدمين أسلوب الشرط المناسب لهذا الرفض، وجاءوا بفعل الشرط وهو المشيئة ليقدموا ما يحلو لهم من أجوبة لم تحدث لانتفاء الشرط؛ وكما يقول الزمخشري:"جاءوا بالتكذيب المطلق، لأنّ اللّه عزّ وجلّ ركب في العقول وأنزل في

١ زهرة التفاسير، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة، دار الفكر العربي،القاهرة، ٨/ ٤٠٦٩.
٢ الإيضاح، ص ٩٧.

الكتب ما دل على غناه وبراءته من مشيئة القبائح وإرادتها، والرسل أخبروا بذلك، فمن علق وجود القبائح من الكفر والمعاصي بمشيئة اللّه وإرادته فقد كذب التكذيب كله، وهو تكذيب اللّه وكتبه ورسله، ونبذ أدلة العقل والسمع وراء ظهره"[1]، فهم يناورون للهرب من أمر فعلوه باختيارهم موظفين ما في أداة الشرط من قدرات تعبيرية وحجاجية.

تكرر استعمال أداة الشرط (لو) في حديث المنافقين من بين طوائف المعاندين، لما لهذا الحرف من قوة تعبيرية تؤثر تأثيرا كبيرا في المستمع الذي يدعوه هذا الربط بين الجملتين إلى الاقتناع وحصر عقله في حل واحد دون غيره من الحلول الأخرى؛ فيقولون للخارجين إلى الحرب دفاعا عن كلمة الله قولا خبيثا عمن استشهدوا ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ ﴿آل عمران:١٥٦﴾، محاولة لإقناعهم بأن البقاء كان سبيل النجاة وسببا في الحياة فيزعزعون عقائدهم بهذا الأسلوب، وتوالى تكرار هذا الأسلوب في السورة نفسها بعد هذه الآية، زيادة في إقناعهم بأن الخروج هو السبب للموت ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ ﴿آل عمران:١٦٨﴾، كما كان للأداة نفسها دور في إخفاء طريقتهم في الهروب وإخفاء كفرهم: ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ ﴿آل عمران:١٦٧﴾، ومرة أخرى يربطون عدم الخروج لعدم الاستطاعة مقرونا بالقسم تأكيدا لصدق خطابهم ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ ﴿التوبة:٤٢﴾

وفي مقام التنديم مع التحول الأخروي ورؤية العذاب وردت (لو) في خطاب المعاندين محاولة منهم لتخفيف ما رأوه من بأس الله تعالى معتمدين على حجج واهية؛ فتارة يقول المستكبرون منهم للمستضعفين ﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾﴿إبراهيم:٢١﴾، فقد علّقوا الهداية بإذن الله كما فعلوا في مشيئته من قبل،

[1] الكشاف، ٧٧/٢.

ولم تكن اليوم غوايتهم هم فحسب بل من تبعهم؛ ولذلك كان خطاب الضعفاء لهم بعد براءة المستكبرين منهم؛ قالوا: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾﴿البقرة:١٦٧﴾؛ ويقولون: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿الشعراء:١٠٢﴾

وورد تكرار (لو) في آيتين من سورة الزمر حاملا غاية الندم والحزن على ما هم فيه بعد تكذيبهم الرسل واستكبارهم وكفرهم؛ قال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ ﴿الزمر:٥٦﴾ لتقول بعد ذلك ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾﴿الزمر:٥٧-٥٨﴾، وجاء اعترافهم هذا على طريقة الشرط، فقد كثر الشرط كأداة لتبرير عنادهم، وكرر تقول ثلاث مرات لبيان خطاب النفس البائسة التي تندم نفسها على ما فعلت ليأتي العرض واحدا تلو الآخر زاجرا للنفس على تفريطها وعدم تقواها، ومن ثم والأمل في عودة غير مؤكد حدوثها؛ كما جاء أيضا الشرط حاملا نبذهم لأفعالهم في رد البيان الواضح ﴿وقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿الملك:١٠﴾، فشبهوا حالهم من فرط عجبهم من أنفسهم بحال من لم يسمع النداء فأصابه الصمم؛ لأنه لا مبرر لرفض البيان الواضح إلا عدم السماع؛ فلو سمعوا لاستجابوا ولذلك شبههم القرآن بالأنعام التي لا تسمع دعاء الناعق بها.

وقد يحمل في أسلوب الشرط في خطاب المعاندين تحديا وشططا؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿الأنفال:٣١﴾؛ وما منعهم أن يقولوا مثله على حد زعمهم أنه من أساطير الأولين، وقد برع النضر بن الحارث في قص قصص التاريخ لهم؛ فاعتمدوا على قدرتهم في هذا مع يقينهم بالعجز عن مجاراته ولو توافرت لهم سبل المجاراة لما امتنعوا عنها.

وإذا كان أسلوب الشرط بـــ(لو) قد سيطر على خطابهم إلا أن حرف الشرط ﴿إن﴾ كان له نصيب منه؛ ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿الأنفال: ٣٢﴾ جاء أسلوب الشرط من معاندي مكة بغية التلاعب والتحدي تعجيزا للرسول ونيلا منه، "وهذا أسلوب من الجحود بليغ؛ يعنى إن كان القرآن هو الحق فعاقبنا على إنكاره بالسجيل، كما فعلت بأصحاب الفيل أو بعذاب آخر ومرادهم نفى كونه حقاً، وإذا انتفى كونه حقا لم يستوجب منكره عذاباً فكان تعليق العذاب بكونه حقا مع اعتقاد أنه ليس بحق؛ كتعليقه بالمحال في قولك: إن كان الباطل حقا، فأمطر علينا حجارة؛ وقوله: ﴿هُوَ الْحَقَّ﴾ تهكم بمن يقول على سبيل التخصيص والتعيين: هذا هو الحق"[1]، ولعلهم يعلمون رحمة النبي –صلى الله عليه وسلم– وأخلاقه وحلمه فاستندوا عليها لبيان عجزه عن إيقاع العذاب بهم أمام أتباعهم أو كان ذلك حماقة منهم وفجرا في الخصومة وحقدا على الدعوة والداع، واختاروا أداة الشرط (إن) للشك في كونه حقا.

وفي أسلوب الجدل والمحاجة استخدام المعاندون طريقة الشرط الحجاجي التي يسوقون من خلالها الحجة لإقناع أنفسهم ومن تبعهم من المستضعفين؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ ﴿الأحقاف:١١﴾، فإذا كان ليس حقا فكيف لهم باتباعه على طريقة المذهب الكلامي القائم على البينة والدليل؛ ولذلك أشاعوا عن القرآن أنه محض افتراء وكذب وأساطير قديمة جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لصرف الناس عن سماعه أولا والكفر به أخيرا.

١ الكشاف، ٢١٦/٢.

ومن طرق الحجاج أيضا ادعاء أنهم لو نزلت عليهم الكتب السابقة لكانوا أشد اتباعا لهديها كالتوراة والإنجيل فلما جاءهم القرآن كذبوه؛ قال تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ} لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ ﴿الصافات:١٦٨- ١٦٩﴾ ويقولون في موضع آخر ﴿ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ ﴿الأنعام:١٥٧﴾، وكل هذه الشروط التي اشترطوها لإيمانهم لم تكن إلا طريقة للخداع والمواربة والجدال، وقد ركزوا على قدرتهم اللغوية لتثبيت دعائم سيطرتهم على عقول أتباعهم؛ وبيان النقص في الرسالة والرسول، ولكنها أكاذيب افتروها بدليل أسلوب الشرط الذي ورد في محاوراتهم يوم القيامة والذي كشف عن غفلة وندم لإنكار الحق.

ويحدث الشرط دوره الفارق عند الاستعانة به؛ لأن الجواب قد يتعدد ولكن المتكلم اختار من بين هذه الأجوبة جوابا واحدا ذكره وحدده للمستمع لتركيز الذهن عليه وحمله على التعاطف معه والتسليم بصوابه، وقد يحذف الجواب إذا أراد المتكلم التوسع فيهبما لا يمسك عليه.

٤- الطاقات الإقناعية للقَصْر في مقاصد المعاندين

من الأساليب الخبرية التي اعتمد عليها المعاندون للوصول إلى مقاصدهم التأثيرية الإقناعية، وللقصر قيمة تعبيرية وله سحر عجيب في تنوع طرقه عند ربط المنطوق بالمفهوم على مستوى التركيب؛ يقول بهاء الدين السبكي: "القصر يتضمن قضيتين إثباتا ونفيا، فالتحقيق أن القصر لا يسمى منطوقا ولا مفهوما، بل تارة يكون كله منطوقا، مثل: زيد قائم لا قاعد، وتارة يكون بعضه منطوقا وبعضه مفهوما، فإن كان بإنما فهو إثبات للمذكور بالمنطوق ونفى لغيره بالمفهوم، نحو: إنما زيد قائم، فإثبات القيام لزيد منطوق، ونفيه عن غيره مفهوم، وإن كان بإلا والاستثناء تام فحكم المستثنى منه ثابت بالمنطوق وحكم المستثنى بالمفهوم، سواء

كان نفيا، نحو: ما قام أحد إلا زيد، أم إثباتا، نحو: قام الناس إلا زيدا، وإن كان الاستثناء مفرغا، نحو: ما قام إلا زيد، فيظهر أن المستثنى منه ثابت بالمنطوق"[1]، وقد استعمل المعاندون أسلوب القصر وغلب على تعبيراتهم استعمال (ما وإلا) و (إن وإلا) وقد تركزت أقوالهم في هذا الأسلوب حول وصف الرسول بافتراء هذا القرآن وبالبشرية تنقيصا له وبالرجل تنكيرا لحاله، ووصف القرآن بالسحر والأساطير، والافتراء، وغير ذلك من أساليب العناد والتكذيب.

وقد اتفقت أقوال المعاندين في الرسل بإثبات صفات النقص لهم ونفي ما عداها عنهم لقلب الحقائق والمماراة؛ فقد قصروهم على السحر أو الجنون؛ فقوم نوح قالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ ﴿المؤمنون:٢٥﴾، وقوما صالح وشعيب عليهما السلام وصفوهما بالسحر: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ ﴿الشعراء:١٥٣، ١٨٥﴾، وبنو إسرائيل قالوا عن عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿المائدة:١١٠﴾، وقالوا عن موسى عليه السلام وما جاءهم به: ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿القصص:٣٦﴾؛ ولما أراد الله تعالى أن يونس النبي –عليه الصلاة والسلام– ويثبته؛ قال: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ ﴿الذاريات:٥٢﴾

كما يستعملون أسلوب النفي والاستثناء محاولة منهم تأكيد قولهم وإثبات ما يزعمون مرة بـــ (ما وإلا)، ومرة (إن وإلا) بل ويكثرون منه؛ وذلك لأن"الخبر بالنفي والإثبات؛ نحو: ما هذا إلا كذا، وإن هو إلا كذا؛ فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه"[2]، وقد تكرر وصفه بالسحر من خلال هذا الأسلوب؛ فقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿المائدة:١١٠، الأنعام:٧، الأنعام:٢٥، هود:٧، سبأ:٤٣،

١ عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، أبو حامد، بهاء الدين السبكي، تحقيق: د.عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٣ م،١/ ٤٠٨.
٢ دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص ٢٥٥.

الصافات:١٥﴾، وأيضا ما ورد على لسان الوليد بن المغيرة: ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ} إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ ﴿المدثر:٢٤-٢٥﴾، مكررا القصر مرة بتأكيد نسبته إلى السحر ومرة بتأكيد كونه لا يجاوز قول البشر، وهو من وصفه بعلوه عن قول البشر فلا يدرك ولا يجارى في علوه، وقالوا: ﴿مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿القصص: ٣٦﴾، والمتدبر لأوصاف المعاندين للقرآن يعرف أن "وسم القرآن بالسحر كثر عددا في القرآن على ألسنة المشركين العرب من الأمم السابقة، وهذا راجع إلى طبيعة الإعجاز البياني في القرآن ذلك الذي استهوى الأفئدة وغلب على القلوب وروعهم بفائق بيانه ... وسواء كانت مقولاتهم تلك صادقة في التعبير عن تأثير القرآن العميق الذي لا ينازعه طبع سوي، وليس ثَم أكثر من السحر والشعر عندهم تأثيرا... أم كان تبريرا مقهورا لجليل التأثير القرآني الذي استقطب نفوسا بينها من التفات ما بين طبع أبي بكر وعمر وسعد بن أبي وقاص وبلال وابن مسعود وغيرهم"[١]، كما وصفوه بالإفك والكذب من خلال توظيف طاقات القصر الإقناعية؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ ﴿الفرقان: ٤﴾، فقولهم هذا يحمل مقاصدهم العناية بصورة قريش داخل مكة وخارجها؛ يقول د. أبو موسى: "وكيف بنيت العبارة هذا البناء الصلب من استعمال اسم الإشارة، ومجيئها على أسلوب القصر، والإخبار عنه بأنه إفك، ومن الواضح في تاريخ الدعوة أن مثل هذه المفتريات على النبي-صلى الله عليه وسلم- والقرآن كان يذيعها وجهاء قريش بين وفود القبائل الوافدة عليهم في التجارة، ومواسم الحج؛ لأنهم كانوا يهتمون جدا بحصار الدعوة داخل مكة للقضاء عليها"[٢]، ومثله تكرار وصف القرآن

١ أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية، د. صباح عبيد دراز، مطبعة الأمانة، مصر، ط١، ١٩٨٦م، ص ٩٠.
٢ خصائص التراكيب، ص٢٢٦.

الكريم بالأساطير في خطاباتهم؛ فقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿الأنعام:٢٥، الأنفال: ٣١﴾، كما وصفوا بعثهم بعد الموت بالأساطير ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿المؤمنون:٨٢- ٨٣﴾، ﴿النمل: ٦٨﴾ وقول العاق لوالديه وهو ينكر الخروج أيضا: ﴿مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿الأحقاف:١٧﴾

ومع مزيد من الاضطراب في أوصافهم للنبي والقرآن؛ قال تعالى عنهم: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾﴿الأنبياء:٥﴾ فهذه الجملة القصيرة تمثل لك بما فيها من توالي حروف الإضراب مقدار ما أصابهم من الحيرة والاضطراب في رأيهم، وتريك من خلالها صورة شاهد الزور إذا شعر بحرج موقفه :كيف يتقلب ذات اليمين وذات الشمال، وكيف تتفرق به السبل في تصحيح ما يحاوله من محال"[١]، فما جاءوا به من صور القصر المتنوعة لإثبات الافتراء ونسبة الشعر إليه لم يكن له وزن ولا إصغاء من القلوب الواعية؛ لتناقض ذلك مع الواقع الخارجي، وإنما كان القصر وغيره طريقة منهم في حشد الدليل اللغوي دون الدليل الخارجي تلاعبا بالأسلوب.

وللتقليل من شأن الرسل جعلوا البشرية في شخصهم عجزا عن تحمل دعوة السماء، وكان نعتهم بالبشرية لمأرب التشكيك في دعوتهم، "وذلك لأنهم بنوا كفرهم على أن من كان مثلهم بشرا لم يكن بمثابة أن يتبع ويطاع وينتهى إلى ما يأمر ويصدق أنه مبعوث من الله تعالى وأنهم مأمورون بطاعته"[٢]، وكان لأسلوب القصر دور في خطابهم؛ لإثبات اعتقادهم بكذب الرسل؛ فقد صدر عن قوم نوح؛ قولهم: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿المؤمنون:٢٤﴾، وذكر تعالى قولهم: ﴿مَا

١ النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، محمد بن عبد الله دراز، دار القلم للنشر والتوزيع، القاهرة، ط ٢٠٠٥م، ٩٨/١.

٢ دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص ١٠٦.

نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ ﴿هود: ٢٧﴾

فالحصر في البشرية أولا ثم اتباع الكلام بالتنقيص إغراء للضعفاء ثم اختاروا المثلية دون غيرها من الأدوات بما يفيد أن لا فضل له عليهم؛ وأداة المشابهة (مثل) توحي بالعينية وشدة التطابق بين طرفي التشبيه؛ لذا قال قوم هود: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ ﴿المؤمنون:٣٣﴾، كما خاطب قوم صالح رسولهم: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿الشعراء:١٥٤﴾، ومثلهم قوم شعيب إذ قالوا: ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿الشعراء:١٨٦﴾

وكذب المعاندون رسل عيسى –عليه السلام– الذين أرسلهم لدعوتهم: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ ﴿إبراهيم:١٠﴾؛ ووصفهم بالبشرية ليس له سبيل "إلا أنك تخرج المدح حينئذ عن أن يكون على حد المبالغة من حيث لا تكون قد ادعيت فيه أنه معلوم وأنه بحيث لا ينكره منكر ولا يخالف فيه مخالف ... لأنهم جعلوا الرسل كأنهم بادعائهم النبوة قد أخرجوا أنفسهم عن أن يكونوا بشرا مثلهم وادعوا أمرا لا يجوز أن يكون لمن هو بشر"[١]، كما تناجى مشركوا مكة بتلك البشرية، ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ ﴿الأنبياء:٣﴾ فبعد أن اتهموه بالسحر صدقوا افتراءهم وتناجوا فيما بينهم للنظر في أمره، وجاء القصر مصدَّرا بالسؤال ليشتمل قولهم على الاستفهام الذي حمل النفي وعلى القصر الذي يؤكدون فيه بشرية الرسول، وتكرر الاستفهام مرة بـــ(هل) وأخرى بالهمزة للإنكار والسخرية مع تدرج الخطاب فإذا كان بشرا أنى له بكل هذه المعجزات فما جاء به

١ السابق، ص٢٥٥-٢٥٦.

لا يكون إلا أمرا واحدا هو السحر فكيف يؤتى وقد ظهر أنه ساحر وفي الاستفهام تعجب ودهشة على الرغم من يقينهم ببلاغة ما جاء به وصدق البينات إلا أنهم أدخلوا الشك إلى أنفسهم ومستمعيهم؛ وهذه حيرة المعاندين التي يصاحبها اضطراب في نفوسهم وأقوالهم وفي تكرار القصر بيان لهذا الاضطراب؛ فقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿سبأ: ٤٣﴾، فكلمات الرجل، والإفك، والسحر هي مدار فحشهم وسمة هذيانهم.

ثم قالوا ﴿رجل﴾ وقد ورد لفظ رجل في القرآن الكريم ثلاث عشرة مرة، واستعمل المعاندون لفظة رجل تحقيرا لشأن الرسل فقد كانوا ينعتونهم بالبشرية في خطابهم ولما قصدوا إلى تخصيص جنسهم أرادوا تقليل عدده وهيبته في عيون القوم وما يحمله تنغيم الكلمة من الاستهانة والترك؛ ولأسلوب القصر طريقة في بيان مقصدهم من السخرية والتهوين حيث يتداخل القصر مع التنكير زيادة في الذم؛ قال تعالى عن قوم نوح: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ ﴿المؤمنون: ٢٥﴾، فأعقب الوصف بالجنون زيادة في التقليل منه، ثم من جاء من بعد نوح عليه السلام من الرسل ولم يذكر القرآن اسمه إشارة إلى وحدة الرسالات ووحدة العناد، قال تعالى عنهم:﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿المؤمنون:٣٨﴾، ونسبوا إليه الافتراء والكذب على الله دون النظر إلى ما يقدم من أدلة، فالحكم على ما يقول لا ما ينعتونه به؛ لأن هذا النعت أعجبهم لصرف الناس عنه أولا وعن دعوته ثانيا، وورد عن مشركي مكة ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾ ﴿سبأ:٤٣﴾، وزاد مشركو مكة وصفا لصرف الناس عنه وهو الصد عن دين الآباء؛ فاختار المعاندون التحقير مع التخويف والنبذ،

وحمل أسلوب القصر على عاتقه تأكيد رسالتهم الباطلة في وصف الرسول بالرجل الخالي من صفات النبوة وعدم القدرة على حملها، وقد كان لأسلوب قصر القلب حضوره في نفي شيء وإثبات ما عداه فقد نفوا عن القرآن قدسيته وعن الرسول رسالته ونعتوهما بالأساطير والسحر والإفك، ونعتوا الرسل بالبشرية والرجولة والسحر والشعر وبقية الصفات التابعة لها.

كما وظفوا القصر لتأكيد عدم بعثهم؛ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ ﴿الأنعام:٢٩﴾، وقالوا:﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ ﴿المؤمنون:٣٧﴾، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴿الدخان: ٣٥﴾، ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿الجاثية:٢٤﴾، فنفوا البعث والنشر والحساب ثم التعليل بإهلاك الدهر لهم وفنائهم فلا قيامة ولا عقاب على الرغم من كل الآيات البينات التي سيقت إليهم، وقدموا تعليلات لهذه القضية وتحديا بعودة من مات من آبائهم ﴿فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾ بل أسهموا في تقديم تعليل للحياة والموت عندهم قالوا ﴿نموت ونحيا﴾ أي: يموت بعضنا ويحيا البعض الآخر، ورغم البراهين التي ساقها القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ﴿الروم: ٢٧﴾ إلا أنهم ظلوا على عنادهم وإنكارهم البعث بعد الموت و"ما كان لدى من تعاطى النظر منهم فلم يوفق، من استبعاد العودة الأخروية، وإنكار حشر الأجساد بعد تفرق الأشلاء والأجزاء وصيرورة بعضها غذاء لحيوان آخر ولتفرقها وفنائها... وهو نظر مبني على قاعدتين واهيتين؛ وهما: إنكار القدرة، وإنكار علمه تعالى بالجزيئات وعليهما بنى منكرو حشر الأجساد من الفلاسفة... ولما بنى المنكرون مذهبهم على إنكار القدرة والعلم بالجزيئات اطرادا في الكتاب العزيز، مهما ذكرت العودة الأخروية، أن يناط بها وصفه سبحانه بالعلم والقدرة إفصاحاً أو

إشارة بينة إطراداً لا ينكسر إرغاماً للمنكر الجاحد وحجة قاطعة بالمعاند"[1]، ولا جدال في الدليل على صدق البعث؛ فهو من الأمور التي اعتنى ببيانها القرآن لكونها خطابا لمنكر للغيب؛ فالقدرة على الخلق تستتبع القدرة على الإماتة ومن ثم الإحياء، فهل كان السبب في شدة إنكارهم للدين حصره لسلطانهم بين عشيرتهم –في زعمهم– مع إنكار البعث هو ما جعل من رءوس الكفر فيهم أصحاب بأس وصلابة في محاربة الدين، أم أن سلطان الحسد لرسول الله أعماهم عن الإذعان له، فاختلقوا إنكارهم للبعث ثم صدقوه.

وحصروا عبادة الأصنام في التقرب إلى الله بأسلوب المواربة والخداع؛ ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ ﴿الزمر:٣﴾، واستعمل القصر في التحدي والمكابرة ومخاطبة صاحب الحق بنسبة الباطل إليه قلبا للحقائق الواضحة؛ فقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ ﴿الروم: ٥٨﴾، فرغم وجود الآية ظل تطاولهم وتعاليهم، وهو من قصر القلب الذي استعمله المعاندون في خطابهم وقصدوا به رد الآيات ورفض الرسالة الواضحة البينة.

وفي موقف الآخرة تحول موقفهم إلى الدهشة والتعجب مما وجدوه في صحائف أعمالهم؛ قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ﴿الكهف:٤٩﴾، ويبدو التباين الشديد في استعمال أسلوب القصر في خطاب المعاندين بين حياتهم وعند حسابهم؛ فبينما يتسم الخطاب في الأولى بالقوة والإنكار والتطاول والذم والجدال ينقلب الخطاب لتحل الحسرة

١ ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، أبو جعفر بن الزبير الغرناطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٣٩٧/٢.

والندم والضعف والرجاء والتمني والنداء في ذلة وخضوع، واختلاف طريقة القصر باستعمال ﴿لا وإلا﴾ دون غيرها.

ثالثا: قوانين الخطاب بين الحجاج والجدل.

تبين المناظرات بين الرسل والمعاندين جهلا واضحا أحيانا ومتعمدا أحيانا أخرى، ولا شك أن امتناعهم عن الإصغاء إلى الحجج والبراهين هو ما أوردهم المهالك فلو قدموا عقولهم واعتبروا بمن قبلهم لعرفوا تناسق الأدلة وأدركوا الحق في سردها فلا تناقض ولا تعارض ولعرفوا حجيتها، ولكنهم تركوا جوهر القضية وجادلوا بالباطل أطرافها، ويعرض البحث لعدد من المحاورات والحجاج بين الأنبياء وأقوامهم المعاندين لهم، وحوارات أخرى بين المعاندين أنفسهم؛ وجاءت نماذج الحجاج كالآتي:

١- إفحام الخصم: حجاج إبراهيم –عليه السلام– لقومه.

قال: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ} إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ} قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ} قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ} أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ} قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ ﴿الشعراء٦٩-٧٤﴾

جاء حوار إبراهيم –عليه السلام–معهم في مناظرة موجزة تبين عجز المعاندين عن إقامة الدليل الذي ينتصر لمعتقداتهم الفاسدة، أو بيان البراهين على هذه المعتقدات، والمناظرة قصيرة جدا لانقطاع أسباب المعاندين؛ لذا أفحمهم إبراهيم –عليه السلام– سريعا، ولما كان سؤاله يحمل بدء المناظرة وقد حمل تهكما بهذه العبادة ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ وهم يعرفون معرفته بعبادتهم حق المعرفة و لكن كان منهم مجاراة للسؤال، أو أنهم "أجابوه؛ لأنهم لم يفهموا وجه استنكاره أو ظنوا أنه لَا وجه للاستنكار"[١]، وجوابهم جاء بإعادة الفعل مرة أخرى قبل الجواب ﴿نعبد﴾ لتأكيد

١ زهرة التفاسير ٥٣٦٥/١٠.

العبادة والخضوع للأصنام؛ "فكان حق الجواب أن يقولوا: أصناماً، لكنهم أطنبوا فيه بإظهار العامل قصداً إلى إبراز ما في نفوسهم الخبيثة من الابتهاج والافتخار بعبادتها"[1]، وفي المقام بسط لا يحتمله السؤال المطروح، فالعكوف والاستمرار على هذه العبادة غير واقع في حيز السؤال، وإنما كان من قبيل الإصرار على العبادة والتأكيد على تشبثهم بها، وهذا الإطناب أوقعهم في الحرج فإنهم لما أطنبوا في الفخر بعبادة هذه الأصنام، جاء السؤال الذي قطع الحجة عليهم وأوقعهم في شرك الهروب من الجواب، فقال: هل يسمعونكم، أو ينفعونكم، أو يضرونكم؛ فانصرفوا عن جواب الاستفهام "لأنهم لو قالوا: يسمعوننا وينفعوننا ويضروننا فضحوا أنفسهم بالكذب الذي لا يمترى فيه، ولو قالوا: يسمعوننا ولا يضروننا لسجلوا على أنفسهم بالخطأ المحض، فعدلوا إلى التقليد البحت لآبائهم في عبادتها من غير برهان ولا حجة... والحيدة عن الجواب من علامات انقطاع الحجة، و﴿بل﴾ هنا إضراب عن جوابه لما سأل وأخذ في شيء آخر لم يسألهم عنه انقطاعا وإقرارا بالعجز"[2]، ودلالة العجز مجيء الجواب من خارج تلك الاختيارات التي أعطاها المناظر، فلا طاقة لهم على تكذيب أنفسهم، فاتجهوا إلى الجدل والموارية؛ فحلّت بهم الهزيمة والانكسار وانقطعت حجتهم بعد إفحام.

٢- مقاصد إثبات الألوهية:

جدال فرعون والمعاندين من قومه مع موسى -عليه السلام-.

حوارات المعاندين بين فرعون وشيعته كثيرة في القرآن، وقد تتنوعت هذه الحوارات بأساليب مختلفة تكشف عند ذكرها عن جانب من جوانب القصة بما يلائم سياق السورة التي وردت فيها، وهذا التنوع الأسلوبي في عرض القصة يبرز طريقة القرآن في دفع الملل والسأم عن المتلقي والكشف في كل مرة عن جوانب لم

١ البحر المديد ١٤٠/٤.
٢ البحر المحيط ١٦٤/٨.

تذكر عند ذكر القصة أول مرة وكما قال الزركشي عن الفائدة في: "إعادة القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدى معنى واحدا، وذلك من الأمر الصعب الذى تظهر فيه الفصاحة وتقوى البلاغة؛ ولهذا أعيد كثير من القصص فى مواضع كثيرة مختلفة على ترتيبات متفاوتة تنبيها بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأ به ومكررا"[1]، وهذا الحوار الذي كان بين ثلاثة هم: فرعون، وموسى –عليه السلام–، والملأ من قوم فرعون.

والمعاندون هنا أفرادا وجماعات تطابقت رؤيتهم وتكاملوا مع بعضهم بعضا في رفض الحق؛ ففرعون يطرح على موسى –عليه السلام– سؤالا يستنكر فيه وجود إله للكون غيره، ويتهمه بالجنون، ويشرك مجلسه من جماعة المعاندين في الحوار ﴿ألا تستمعون﴾، ويتوعده بالعقوبة ويخص السجن، فجاءه موسى عليه السلام بمعجزتي العصا واليد؛ فالتفت إلى الملأ حوله ونعته بعلم السحر وبحرصه على إخراجهم من أرضهم، فقالوا ماكرين أرجئه–أخره– وأخاه، ودلوه على إبطال ما يقول بفضحه أمام الناس وكشف كذبه معتقدين أن ما جاء به سحرا لا بينات؛ قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ} قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ} قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ} قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ} قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ} قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ} قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ} قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ} قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ} وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ} قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ} يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ} قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ} يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿الشعراء: ﴿٢٣– ٣٧﴾

١ البرهان للزركشي، ٥٦/١.

والآيات هنا من سورة الشعراء ثم في سورة الأعراف مثل هذا، لكن الحوار مع المعاندين من شيعة فرعون، حيث يكشف تماثل الموضعين واتفاقهما وحدة المصلحة والمنفعة بين الفرد المعاند (فرعون) وجماعة المعاندين (الملأ) وتكشف بجلاء تطابق رؤيتهم في الرسالات التي يعتقدون أنها ستنال من حظهم الدنيوي وملكهم الذي شيدوه؛ ففي الأعراف جاء الحوار على لسان المعاندين وقد كان من قبل في الشعراء على لسان فرعون على طريقة التناسب في رفض الحق؛ قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ} يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ} قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ} يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿الأعراف:١٠٩-١١٢﴾

وكثيرا ما يصدر عنهم مغالاة في رد الرسول ويعرضون الرأي على فرعون ليسحق موسى عليه السلام فقد كانوا أشد إيلاما له من فرعون؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ ﴿الأعراف: ١٢٧﴾

وسلكوا في مقاصدهم طريقة الاستفهام الإنكاري فهم في أسلوبهم هذا ينكرون عليه ترك موسى وقومه ليفسدوا ما شيدوه من مجد وأتباع، ويكررون الفعل ﴿يذر﴾ مرة من فعل فرعون ومرة من فعل موسى عليه السلام، والفعل ظاهره التكرار تكرار يقرع سمع فرعون مع اختلاف هذا التكرار في معناه فهو يتركه –أي:فرعون– لا ينزل به الأذى الجسمي، وموسى يتركه ليلحق به الأذى النفسي برفض عبادته؛ لذا كانت هذه الشحنة العدائية تجاه موسى لها أثرها في توعد فرعون بقتل الأبناء واستحياء النساء وهي عادة قديمة انتهجها في تعذيبهم قبل ميلاد موسى وبعده مؤكدا سلطانه عليهم وقهره لهم؛ ولذلك"لما استزادوا من فرعون في التمكين من موسى وقومه استنكف أن يقر بعجزه، ويعترف بقصور قدرته، فتوعد موسى وقومَه بما

عكس الله عليه تدبيره، وغلب عليه تقديره"[1]؛ وقد فعلوا ذلك، ليوافق سُخط فرعون سخطهم.

وفي يونس عرضت اللقطة مرة أخرى لكن بإجمال فرعون وملئه معا في الرفض دون تمييز بينهم ليؤكد على وحدة المعاندين في رفض رسالة الحق؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ} فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ} قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ} قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿يونس:٧٥-٧٨﴾، وزاد هنا حجة صرفهم عما كان يعبد آباؤهم، وأنه ما جاء بما جاء به إلا ليكون له الجاه والسلطان دونهم، وبدا الصراع والدفاع عن أمرين لا حجة فيهما بما بدا من حوارهم.

وقد عرض القرآن لمخالفات الأقوام عامة موضحا وحدة العناد وجامعا طوائف المعاندين على اختلاف أزمانهم، ومبينا مخالفتهم للفطرة السوية، وكاشفا بجلاء طبيعة عناد جميع الأقوام من قوم نوح ومن بعدهم؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ} قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ} قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا

[1] لطائف الإشارات، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط٣، ١/ ٥٥٩

وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿إبراهيم: ٩-١٣﴾ لخصت الآيات طرق صد المعاندين للدعوات إلى الله، كما بينت الآيات وحدة منهج الرسل في الدعوة إلى الله والرغبة في تنفيذ ما كلفوا به مع حرصهم على إيمان أقوامهم، كما بينت بجلاء وحدة منهج المعاندين التقليل من شأن الرسالات ورسلها لتيسير هدمها مع تكرار الأقوال والأفعال؛ مما يؤكد وحدة النفس البشرية التي ترغب فيما تهوى فإن وافق الخير هواها قبلته وإن وافق الشر هواها اعتنقته ودافعت عنه.

٣-تَبدُّل الحوار مع التحول الأخروي: حوارات المعاندين بين السادة المترفين والأتباع المستضعفين.

تباينت أساليب الإقناع بين المترفين والضعفاء؛ ففي موقف قبول الرسالات كانوا أشد خصومة للرسل، وظهر من حواراتهم مع الرسل قوة الرفض والتكذيب لميلهم إلى صرف الضعفاء عنهم عن طريق التعريض بكذبهم؛ فقد حاولوا محاولات مستميتة القدح في صدق الرسل؛ فقالوا كاذبون، والقدح في منهج الرسل؛ فقالوا سحرة، والقدح في بشريتهم فحقروا كونهم منهم أو مثلهم، والقدح فيما يقول من حجج وأدلة وبراهين؛ فكانوا يقابلون كل برهان ببرهان آخر مغالطة وخصومة في الجدال.

والجَدل: "أن يتناول الحديث طرفان أو أكثر، عن طريق السؤال والجواب، بشرط وحدة الموضوع أو الهدف، فيتبادلان النقاش حول أمر معين، وقد يصلان إلى نتيجة متوافقة، وقد لا يقتنع أحدهما بما يقوله الآخر، ولكن السامع يأخذ العبرة، ويكوّن لنفسه موقفاً[١]، وذكر القرآن لهذه المساجلات والحوارات بين الرسل والمعاندين

١ الجدل والحوار والمناظرة، د. شاهر النهاري/ موقع الجزيرة، العدد ١٤٢٣٨، https://www.al-jazirah.com/٢٠١١/٢٠١١٠٩٢٢/cu١٦.htm.

صورا شتى، ومن بين هذه القصص ما توجه به إلى أهل مكة، وقد نقل لهم صور المحاججة والجدال لمن سبقهم من الأمم، وعاقبته التي أفضت إلى هلاكهم، وهم يعرفون أخبارهم.

وتنوعت صور هذه المحاورات والمجادلات كما ذكر القرآن فمنها محاورات جاءت بعد تلقي الرسالات في الدنيا، ومحاورات وخصومة نقلها أيضا في الآخرة؛ لبيان عاقبة المعاندين، وهو –أي: القرآن– قد تبين صدق براهينه وأدلته في خطاب المعاندين في الدنيا؛ فإن خطابه عن الغيب مثل خطابه عن الشهادة وأكثر صدقا ودقة؛ فقد قال لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ ﴿الفيل:١﴾، والرسول لم يكن قد رأى هذا الموقف؛ لأنه ولد في هذا العام، فكان إخباره كالمشاهدة والمعاينة، **ومن هذه المحاورات صورة لإصرار قوم صالح على الكفر قولا وفعلا وبخاصة من جانب المستكبرين**؛ قال تعالى:﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ} قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ ﴿الأعراف: ٧٥– ٧٦﴾

يبدأ حوار المستكبرين بالاستفهام محاولة منهم لبيان سلطتهم في توجيه السؤال، وسؤال المعاندين هذه المرة كان للمؤمنين من المستضعفين ﴿أتعلمون﴾ سؤالهم موجه إلى نفي الصلة بين صالح وربه والعجب من ادعائه هذا؛ ولكن إجابة المؤمنين ركزت على ما نفوه لا ما ذكروه؛ "وكان مقتضى مطابقة الجواب للسؤال أن يقولوا نعم، أو نعلم أنه مرسل من ربه، أو إنا برسالته عالمون، ولكنهم أجابوا بما يستلزم هذا المعنى ويزيد عليه، وهو أنهم علموا بذلك علما يقينيا إذعانيا له السلطان على عقولهم وقلوبهم"[1]؛ وكان استلزام الحوار ألا يجيبوا عن علمهم برسالة

١ تفسير المنار ٤٤٩/٨.

صالح عن ربه، بل إثبات تصديقهم للرسالة الذي يستتبعه إثبات الصلة بين صالح وربه؛ لذا جاء رد المستكبرين نافيا لما آمنوا به؛ ففي قولهم: ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ﴾ "إنما لم يقولوا إنا بما أرسل به كما قال الآخرون لئلا يكون اعترافا برسالته"[1]، وكان منهم بعد الفعل الكلامي الإخباري المؤكد؛ فعل حركي وهو عقر الناقة ﴿فعقروا الناقة﴾؛ لما تبين لهم من ضعف تأثيرهم في القول والإقناع.

ولعلمهم بتأثير معجزة الناقة على المؤمنين بصالح والكافرين به؛ فالمؤمنون ازدادوا إيمانا والكافرون كل يوم يتناقصون كلما رأوا هذه المعجزة التي لا ينكرها عاقل، ومن هنا كان السياق اللغوي غير مجد مع وجود الدليل المادي والبرهان الساطع؛ فكان الخلاص من الآية (السياق الخارجي) الحي والتوحيه بذبح المعجزة الداعمة لنبوة صالح عليه السلام، ومثله قول فرعون وقد أدركه الغرق، فلم يقل آمنت بالله رب العالمين، بل دفعه كبره إلى القول: ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾

ومن صور الحوار بين جماعة المعاندين مع التحول الآخروي صورة يتبارى المعاندون فيها برفض الترحيب بعضهم ببعض، فجاء الترحيب من الملائكة على سبيل السخرية والجزاء فكل يرحب به من جنس عمله وهذا جزاؤهم؛ قال تعالى حكاية عن أحوالهم وشدة الخصومة فيما بينهم لما رأوا ضلال بعضهم لبعض: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ} قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ } قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ ﴿ص :٥٩- ٦١﴾، وجاءت واو الجمع لإدخال الفريقين كل في بعض على طريقة اللف والنشر، وقال المستضعفون ذلك، وقال المستكبرون مثلهم؛ لأن من

١ التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم، ابن جزي الكلبي الغرناطي، تحقيق: د. عبد الله الخالدي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط١٤١٦،١ هـ، ١/ ٢٩٣.

المستضعفين من رفض الكفر وتمسك بالإيمان ولكن هؤلاء من بين المستضعفين الذين انصاعوا لغي المستكبرين؛ لنوازع الشر فيهم، ولما رأى المستكبرون هول ما هم فيه ولا يمكنهم حمل أوزار غيرهم تبرأوا من اتِّباعهم لهم.

ويتضح ذلك من حوارهم في سورة سبأ الذي حمل التفصيل؛ قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ} وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ ﴿سبأ: ٣٢-٣٥﴾ وقد بينت هذه الآيات حوار المعاندين وتلاسنهم في النار، كما بينت دور المترفين في قيادة الضعفاء من أقوامهم وأصحاب الحاجات والمصالح الذين تبعوهم لعرض يسير؛ فصاروا يشاركونهم في العذاب الكبير.

وقد ذكر القرآن حواراتهم معا في سياق المحاججة، فهو إذ يعرض لحالهم يبين محاولات المستضعفين إقناع المستكبرين بسوء تصرفهم، ولكن المستكبرين حسموا الحجاج؛ فلا قدرة لهم لنفع أنفسهم فكيف بنفع غيرهم؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ} قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ ﴿غافر:٤٧- ٤٨﴾ وكان المستكبرون أكثر رؤية في قطع الحجة عليهم فلا قيمة للجدال، وقد كانوا من قبل يوجهونهم إلى الضلال في الدنيا، واليوم هم من يأخذ مبادرة التوقف عن تراشق التهم وحسم الخلاف، وأبان أسلوبهم الخبري المؤكد بإنّ مرتين مع ﴿قد﴾ تأكيد انقضاء الحكم، فقولهم: ﴿إنّا كل فيها﴾ تعريض بعدم فائدة التلاسن فلا سلطان لنا لإنصافكم أو حمل نصيب من العذاب عنكم، وقولهم:

﴿إن الله قد حكم﴾ التأكيد على أنهم قد امتثلوا لقضاء العقوبة، وجاء بالاسم الجليل ﴿الله﴾ لمهابته في نفوسهم وقد كانوا ينكرون ألوهيته في الدنيا، واستعملوا ﴿حكم﴾ بدلا من فصل وغيره، لما بدا بينهم من الخصومة الظاهرة؛ فكل فريق يرى الحجة والصواب من جهته، والحكم منه "الحكمة وهي إصابة الحق بالعلم والعقل، فالحكمة من الله تعالى، معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام... والحكم أعم من الحكمة، فكل حكمة حكم، وليس كل حكم حكمة، فإن الحكم أن يقضي بشيء على شيء"[1]، والقضاء انتهاء الأمر ببيان واضح لا لبس فيه؛ وقد قصّ القرآن عن كفر الشركاء من الأصنام والأوثان لهم وهم العقلاء : ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ ﴿فاطر:١٤﴾.

١ المفردات للراغب الأصفهاني، ص٢٥٢- ٢٥٣.

الخاتمة

قدمت القصدية بشكل عام دورا في بناء جسور التواصل والتكامل بين النظريات العربية والغربية في الكشف عن خبايا الخطاب وبيان مقاصده من خلال الاستعمال والسياق الوارد فيه والعلاقة بين المتكلم والسامع، فقد كشفت عن نقاط التلاقي بين البلاغة والتداولية والحجاج؛ وكان لتكاملها دور في استنطاق خطاب المعاندين في الخطاب القرآني.

- اعتماد خطاب المعاندين دون قصد على نظريات التداولية؛ كالحدث وقوانين الخطاب وأفعال الكلام، وكلها تتكامل مع الدرس البلاغي العربي.
- كشفت الدراسة عن تنوع طوائف المعاندين على حسب درجة الكفر قولا وفعلا، ظاهرا وباطنا، علما وجهلا، فرادى وجماعات.
- تنوعت طوائف المعاندين من الجماعات؛ فكان منها أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وأوصاف مبينة لأحوال العناد؛ كالذين كفروا، والذين أشركوا، والذين نافقوا، والذين ظلموا، ثم الأقوام المكذبة للرسل.
- كما تنوع المنكرين من الأفراد؛ من الجن كإبليس والشيطان، ومن الإنس كخطاب الإنسان ومن الذين ذكروا بأسمائهم آذر، قارون، وهامان، أو بألقابهم؛ كالسامري وفرعون، ومن المعاندين من ذكرت صفاتهم ومواقفهم دون أسمائهم؛ كالوليد بن المغيرة وأبيّ بن خلف والنمروز وقابيل، والعاق لوالديه، وأشقى ثمود.
- تباين مقامات العناد حسب كل رسول وكل قضية مع الاتفاق على العصيان؛ ومن هذه المقامات: مقام الكفر والاستكبار مع سوق الدلائل على صواب المعتقد، ومقامات ذم الرسل ونعتهم بأوصاف عدة منها البشرية والجنون والكذب والشعر والسحر وغير ذلك، ومقامات ذم الرسالات لتيسير هدمها ونعتها بالسحر والاختلاق والإفك والأساطير وغير ذلك، ومقامات التحدي والتعجيز، وإنكار البعث والنشور،

والسخرية والتحقير، ثم مقام التحسير مع التحول الأخروي والمشاهد الحية لصدق الرسل والرسالات.

- اتكأ المعاندون على أساليب سجالية لإثبات كذب الرسل ومحاولة تسفيه ما جاءوا به؛ فاستخدموا توجيهات أساليب النهي والأمر والنداء، ومسلمات الإخبار، وراوغوا بالاستفهام، وتوسعوا في سلطة النفي، وكشفت المزاوجة بين النداء والتمني عن خزيهم مع التحول الأخروي، كما اعتمدوا في بناء الجمل على القِصَر والحذف والتكرار.
- كما اعتمد المعاندون على الصيغ والأدوات في خطاب التكذيب؛ ومنها: القسم، وأدوات التحضيض، ووظفوا الشرط للإفلات من العقاب، وحرصوا على استغلال الطاقات الإقناعية للقصر في خطابهم.
- ظهر جليا من خلال تحليل قوانين الخطاب عندهم استعمال الجدل كوسيلة للهروب من الجواب، وحوارات إبراهيم عليه السلام مع قومه، وكذلك حوارات موسى عليه السلام مع فرعون كانت خير شاهد على ضيق الأفق وضعف الحجة والمماراة الكاذبة، وهو ما أثبته خطاب المستكبرين مع الأتباع عند التحول الأخروي.
- كما أوحى أطلاق أسماء بعض المعاندين على سور من القرآن الكريم على أهمية القضية محل الدراسة فقد ذكرت بطرق شتى؛ كسور: الكافرون، والمنافقون، والهمزة، والمطففون، وأطلقت سور على بعض الأقوام؛ كسور: سبأ، والحجر، والأحقاف، والأحزاب، والجن، والإنسان، كما أطلقت بعض أسماء السور على معجزات الرسل اهتماما بها وإظهارا لقدرها وبيانها في مقابل الكفر والعصيان؛ نحو: البقرة، والمائدة، والإسراء، والكهف، والنمل، والقمر، والطور، والفيل، والمسد، وقريش، كما أطلقت أسماء الرسل أنفسهم على سور أخرى؛ نحو: آل عمران، ويونس، وهود، ويوسف، وإبراهيم، ومريم وطه والأنبياء، ولقمان، ويس، ومحمد، ونوح، والمزمل والمدثر.

المصادر والمراجع

- الاتجاه التداولي والوظيفي في الدرس اللغوي، نادية رمضان النجار، مؤسسة جورس الدولية، الإسكندرية، مصر، ط١،٢٠١٣م.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود محمد العمادي ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية، د. صباح عبيد دراز، مطبعة الأمانة، مصر، ط١، ١٩٨٦م.
- إعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، عائشة محمد علي عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، دار المعارف، القاهرة، ط٣.
- إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين درويش، دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية، ط٤، عام ١٤١٥هـ.
- إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، الحسين بن أحمد بن خالويه، مطبعة دار الكتب المصرية، سنة ١٩٤١م.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين البيضاوي، دار الفكر، بيروت، عام ١٩٩٦م.
- أوضح التفاسير، محمد محمد عبد اللطيف بن الخطيب، المطبعة المصرية ومكتبتها، القاهرة، ط٦، ١٩٦٤م.
- أوضح المسالك إلى ألفية إبن مالك، أبو محمد عبدالله جمال الدين بن هشام الأنصاري، دار الجيل، بيروت، ط٥، عام ١٩٧٩م.
- الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين القزويني، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط٣.
- البحر المحيط، أبو حيان أثير الدين الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ط١٤٢٠هـ.

- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة، تحقيق أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي، القاهرة، ط ١٤١٩ هـ.
- البرهان في علوم القرآن، محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١ه.
- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد المرتضى الزَّبيدي، طبعة الكويت.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
- التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم، ابن جزي الكلبي الغرناطي، تحقيق: د. عبد الله الخالدي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط١٤١٦،١ ه.
- التفسير الحديث، دروزة محمد عزت، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط ١٣٨٣ هـ.
- تفسير الشعراوي، الشيخ محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة.
- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١٩٩٠ م.
- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٩٩م.
- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، د.محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١.
- حاشية السيالكوتي على كتاب المطول للتفتازاني، عبد الحكيم بن شمس الدين السيالكوتي، تحقيق: محمد السيد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر، محمد سالم محمد الأمين، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، بيروت، ط١، سنة ٢٠٠٨م.

- الجامع لأحكام القرآن، شمس الدين القرطبي، تحقيق : هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، السعودية، ط ٢٠٠٣ م.
- خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٧.
- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٩٢م.
- دلائل الإعجاز، أبو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني، تحقيق: د.محمد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٥.
- زهرة التفاسير، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة، دار الفكر العربي،القاهرة.
- سر الفصاحة، أبو محمد عبد الله بن سنان الخفاجي، دار الكتب العلمية، ط١، عام١٩٨٢م.
- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، أبو حامد، بهاء الدين السبكي، تحقيق: د.عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٣ م.
- علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، د.سعيد بحيري، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، القاهرة ١٩٩١م.
- على طريق التفسير البياني، د. فاضل السامرائي، النشر العلمي لجامعة الشارقة، الإمارات، سنة ٢٠٠٢م.
- الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى، مع حاشية الإمام العلامة أحمد بن محمد، المعروف بابن المنير، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١٤٠٧ هـ.

- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، ط١.
- لطائف الإشارات، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط٣.
- لغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، دار العمدة في الطبع، المغرب، الدار البيضاء، ط١، سنة ٢٠٠٦م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، عام ١٤٢٠هـ.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، عام ١٤٢٢هـ.
- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، القاهرة، ط ١٩٧٩م.
- مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، عام ١٤٢٠ هـ.
- مفردات ألفاظ القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني، دار القلم، دمشق.
- مقاصد اللغة وأثرها في فهم الخطاب الشرعي، أحمد كروم، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الأردن، ط١، ٢٠١٥م.
- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، أبو جعفر بن الزبير الغرناطي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، محمد بن عبد الله دراز، دار القلم للنشر والتوزيع، القاهرة، ط ٢٠٠٥م.

- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، أبو بكر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٩٨٤م.

كتب مترجمة

- القاموس الموسوعي للتداولية، تأليف جاك موشلر و آن ريبول، ترجمة نخبة من الأساتذة بالمركز الوطني للترجمة بتونس بإشراف عز الدين المجدوب،، منشورات دار سيناترا، تونس ٢٠١٠م.
- الملفوظية، جان سيرفوني، ترجمة د. قاسم المقداد، منشورات كتاب الاتحاد العربي، دشق، ١٩٩٨م.
- نظرية الصلة أو المناسبة في التواصل والإدراك، سبيربر دان، وولسون ديدري، ترجمة: هشام إبراهيم الخليفة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٦م.

المجلات ومواقع الإنترنت

- البعد التداولى في سيموطيقا موريس، د. عيد بلبع، مجلة فصول، القاهرة، عدد ربيع ٢٠٠٥م.
- الجدل والحوار والمناظرة، د. شاهر النهاري/ موقع الجزيرة، العدد ١٤٢٣٨، https://www.al-jazirah.com/٢٠١١/٠٩/٢٢/cu١٦htm.
- العقل مدخل وموجز، جون ر سيرل، ميشال حنا متياس، مجلة عالم المعرفة، الكويت، سبتمبر ٢٠٠٧م.
- القصدية من فلسفة العقل إلى فلسفة اللغة، مجلة كلية الآ داب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، ع ٦، عام ٢٠١٠م.